فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السابعة والثمانين بعد الخمسمائة

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله، والسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب مقيم على عكا والحصار مستمر على حاله من الجانبين، وقد استكمل دخول البدل إلى البلد، والملك العادل أخو السلطان مخيم إلى جانب البحر ليتكامل دخولهم ودخول ميرتهم.

ذكر وقعات متعددة في هذه السنة بين المسلمين والأفرنج

الأولى: وقعت في مستهل ربيع الأول منها، خرج المسلمون من عكا فهجموا على مخيم الأفرنج، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، ونهبوا شيئاً كثيراً، وسبوا اثني عشر امرأة.

الثانية : وقعت في ثالث ربيع الأول بينهم وبين يزك السلطان ، وذلك أنه خرج إليهم من الأفرنج خلق عظيم وجرى بينهم وقعة شنيعة قتل فيها من الأفرنج جماعة ، وقتل منهم رجل كبير على ما قيل، ولم يفقد من المسلمين إلا خادم كان للسلطان يسمى قراقوش، وكان شجاعاً عظيماً له وقعات كثيرة عظيمة استشهد في ذلك اليوم.

وفي بعض التواريخ: ولم يقتل من المسلمين في هذه الوقعة سوى طواشي صغير عثر به فرسه.

الثالثة: وقعة أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه الكبير صاحب حمص، وكان من حديثه أن السلطان رحمه الله كان قد رسم له أن يأخذ حذره من الفرنج بطرابلس، ويأخذ بحراسة المسلمين والفلاحين في تلك الناحية، وأنه قيل له إن أهل طرابلس قد أخرجوا جشارهم وخيلهم وأبقارهم إلى مرج هناك، فخرج أسد الدين

على غرة منهم، وهجم على جشارهم فأخذ منه أربعمائة رأس من الخيل، ومائة رأس من البقر، فهلك من الخيل أربعون وسلم الباقي، وعاد إلى البلد ولم يفقد من أصحابه أحد، ولكن قتل منهم جماعة، ووصل كتابة بذلك إلى السلطان في الرابع من صفر من هذه السنة.

وفي ليلة هذا اليوم ألقت الريح مركباً لهم على الساحل فكسرته، وكان فيه خلق كثير منهم، فبصر به المسلمون فوثبوا عليهم وأخذوهم عن آخرهم.

وقال القاضي بهاء الدين: ولقد حضرت وقد عرض منهم على السلطان خمسة عشر نفراً.

الرابعة: وقعةالملك العادل أخي السلطان: وذلك أنه بلغ السلطان يوم السبت تاسع ربيع الأول منها أن العدو يخرجون طائفة بعد طائفة وينفسحون لبعد المسلمين عنهم، فاقتضى رأيه أن أنفذ أخاه الملك العادل، وفي خدمته خلق كثير من العساكر، وأمره أن يكمن وراء التل الذي كانت فيه الوقعة المعروفة به، وسار هوفكمن وراء تل العياضية، وكان معه من كبار أهله الملك المظفر تقي الدين وابنه ناصر الدين محمد والملك الأفضل ولده، ومعه من صغار أولاد ه الملك الأشرف محمد والملك المعظم تورانشاه والملك الصالح اسماعيل ، وكان من المتعممين القاضي الفاضل والديوان وقاضي القضاة بهاء الدين، وركب جماعة من الشجعان على الخيول الجياد، وناوشوا العدو وباسطوه، فلم يخرج في ذلك اليوم أحد، وكأنه كان قد وشي إليهم بجلية الأمر، إلا أنه حصل في ذلك اليوم نوع نصرة للمسلمين، فإنه وصل في أثناء ذلك اليوم خمسة وأربعون نفراً من أسارى الفرنج، فإنهم كانوا قد أسروا في بيروت وسيروا إلى السلطان رحمه الله.

قال قاضي القضاة بهاء الدين رحمه الله: ولقد شاهدت من السلطان في ذلك اليوم رقة قلب ورحمة لم ير أعظم منها، وذلك أنه كان في الأسرى شيخ كبير طاعن في السن، لم يبق في فمه ضرس ولا له قوة إلا مقدار ما يتحرك بها لاغير، فقال للترجمان: سله ما الذي حملك على المجيء وأنت في هذا السن، وكم من ها هنا إلى بلادك؟ فقال: أما بلادي فبيني وبينها مسيرة عدة أشهر، وأما مجيئي فإنه كان للحج إلى القيامة، فرق له السلطان ومن عليه وأطلقه وأعاده راكباً على فرس إلى عسكر العدو.

ولقد سأل من السلطان أولاده الصغار أن يأذن لهم في قتل الأسرى، فلم يأذن لهم، قال القاضي بهاء الدين: فسألته عن سبب المنع وكنت حاجبهم فيما طلبوه، فقال: لئلا يعتادوا من الصغر على سفك الدماء.

ولقد جرت وقعات أخرى في هذه الأيام إلى أن أخذوا عكا من المسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ذكر وصول ملك الافرنسيس

واسمه فيليب، وكان وصوله في الثاني عشر من ربيع الأول، يوم السبت في ست بطس ملعونة مشحونه بعبدة الصليب، وحين وصل إليهم لم يبق لأحد من ملوكهم حكم، وذلك لعظمته عندهم، وكان الأفرنج كل وقت يتواعدون المسلمين بقدومه ولاسيما لليزك ومن يقاربهم من المسلمين، وكان هذا الملعون من كبار ملوكهم، لايتقدم عليه أحد، ولما قدم كان معه من الميرة ما يحتاج إليه هو وأصحابه، وكذلك من الخيل والسلاح ، وكان قد صحب معه من بلاده باز عظيم عنده ، هائل الخلق،أبيض اللون، نادر الجنس، وكان يعزه ويحبه حباً عظيماً فانفلت من يده وطار وهو يدعوه فلا يجيب حتى سقط على سور عكا، فأمسكه أهلها وأرسلوه إلى السلطان رحمه الله، وكان لقدومه استبشار عظيم بالظفر به، وتعالوا بذلك، وبذل الفرنج فيه ألف دينار فلم يجابوا.

-١١٣٧١-

ذكر قدوم كند فرند

قدم هذا اللعين بعد ملك الافرنسيس، وهو أيضاً من أكابر ملوكهم، وكان مقدماً عظيما عندهم، مذكوراً، وكان حاصر حماه وحارم في عام الرملة.

ثم وصلت سفن عن ملك الانكتار ـ لعنه الله ـ واسمه جبلرت ، ولم يجىء هو لا نشغاله بجزيرة قبرس.

وقال العماد الكاتب: وصل الخبر أن ملك الانكتار وصل إلى جزيرة قبرس في السادس والعشرين من ربيع الآخر في جمع عظيم ، وتقدمته إلى الجزيرة مراكب وشواني على قصد الجزيرة، فخرج صاحب قبرس إليها واستولى عليها وغنم اموالها، وصدم رجالها، فلما وصل مكث متحيراً، واشتغل بالقتال وأنفذ إلى الأفرنج الذين على عكا يطلب منهم نجدة فأنفذوا له جفري أخا الملك العتيق في جموع كثيرة، وامتدت الحروب بينهم، ثم تراسلوا في الصلح، واجتمع صاحب الجزيرة بملك الانكتار، وحمل له هدايا وتحفاً، ووسع له الأزواد، وبذل له الأمداد.

وقال صاحب النوادر: وكان ملك الانكتار هذا شديد البأس بينهم، عظيم الشجاعة، قوي الهمة له وقعات عظيمة وجسارة على الحرب، ولكنه دون ملك الافرنسيس في الملك والمرتبة، ولكنه أكثر مالاً منه وأشهر في الحرب والشجاعة، وكان الأفرنج على عكا منتظرين ما يكون بين الطائفتين منهم. ولما كان يوم الأحد سلخ ربيع الآخر من هذه السنة وصلت كتب من بيروت تخبر أنه قد أخذ من مراكب الانكتار القاصدة نحو عسكر العدو خمس مراكب وطرادة فيها خلق كثير من الرجال والنساء والميرة والأخشاب والآلات وغير ذلك، وفيها أربعون فرساً، وكان ذلك فتحاً عظيماً استبشر به المسلمون.

ذكر وصول العساكر الاسلامية

لما انفتح البحر وطاب الزمان، وجاء أوان عود العساكر إلى الجهاد من الطائفتين قدم من العساكر الاسلامية خلق كثير، وكان أول من قدم علم الدين سليمان بن جندر من أمراء الملك الظاهر غازي، ولد السلطان صاحب حلب، وكان شيخاً كبيراً مذكوراً، له وقائع ورأي حسن، والسلطان يحترمه ويكرمه لقدم صحبته، ثم قدم بعده مجد الدين بن عز الدين فروخشاه بن شاهنشاه صاحب بعلبك، وتتابعت بعد ذلك العساكر الاسلامية من كل صوب.

ذكر زحف العدو إلى عكا

لما كان يوم الخميس الرابع من جمادى الأولى من هذه السنة زحف العدو إلى البلد ونصبوا عليه مناجيق سبعاً ، ووصلت كتب عكا بالاستنفار العظيم، والتماس شغل العدو عنهم، فأعلم السلطان العساكر بالعزم على الرحيل إلى مضايقة العدو، فسار حتى وقف على الخروبة ورتب العساكر ميمنة وميسرة وقلباً، ثم بعث من كشف حال العدو، وحال خنادقهم، هل فيها كمين لهم أم لا، فعادوا وأخبروا بخلوها عن الكمين، فسار بنفسه ومعه نفر يسير من مماليكه حتى أتى خنادقهم، وصعد تلاً كان يعرف بتل الفضول ، وهو قريب العدو ومشرف على خيامهم ، وشاهد المنجنيقات وما يعمل منها، وهو بطال، ثم عاد سائراً إلى مخيمه.

قال قاضي القضاةبهاء الدين: وأنا في خدمته، وفي صبيحة هذه الليلة أتاه اللصوص برضيع له ثلاثة أشهر، قد أخذوه من أمه وسرقوه.

ذكر قضية الرضيع

وذلك أنه كان للمسلمين لصوص يدخلون إلى خيام العدو فيسرقون منهم ما قدروا عليه ، وكان من قضيتهم أنهم أخذوا ذات ليلة طفلاً رضيعاً له ثلاثة أشهر، وكانوا سرقوه من مهده، وعرضوه على السلطان، وكان كل ما يأخذونه يعرضون عليه فيخلع عليهم ويعطيهم ما أخذوه، ولما علمت أمه بذلك وجدت عليه وجداً شديداً، وباتت تلك الليلة مستغيثة بالويل والثبور حتى وصل خبرها إلى ملوكهم، فقالوا لها:إن سلطان المسلمين رحيم القلب، وقد أذنا لك بالخروج إليه، فاخرجي واطلبيه منه فإنه يرده عليك، فخرجت وهي تستغيث إلى يزك المسلمين ، فأخبرتهم بواقعتها بترجمان كان يترجم عنها فأطلقوها وأنفذوها إلى السلطان، فأتته وهو راكب على تل الخروبة.

وقال قاضي القضاة بهاء الدين: وأنا في خدمته، وفي خدمته خلق عظيم، فبكت بكاء شديداً، ومرغت وجهها في التراب، فسأل عن قصتها فأخبروه فرق لها، ودمعت عينه، وأمر باحضار الرضيع، فمضوا فوجدوه قد بيع في السوق، فأمر بدفع ثمنه إلى المشتري وأخذه منه، ولم يزل واقفاً حتى أحضر الطفل وسلم إليها فأخذته وبكت بكاء شديداً وضمته إلى صدرها والناس ينظرون إليها ويبكون ، فأرضعته ساعة، ثم أمر بها السلطان فحملت على فرس وألحقت بعسكرهم، فانظر إلى هذه الرحمة الشاملة والشفقة الكاملة، وانظر إلى شهادة الأعداء له بالرقة والكرم والرأفة والرحمة:

ومليحة شهدت لها ضراتها
والحسن ليس لحقه من ناكر

قال قاضي القضاة بهاء الدين: وفي ذلك اليوم وصل ظهير الدين بن البلنكري، وكان مقدماً عظيماً من أمراء الموصل، وصل مفارقاً لهم طالباً

خدمة السلطان، ولما عاد السلطان إلى مخيمه لم يمكث إلاساعة حتى وصل إليه الخبر بتجديد الزحف على عكا، فعاد وركب من ساعته، وسار نحو البلد فوصل وقد انفصل الحرب بدخول الليل بين الطائفتين.

ذكر كيفية أخذ العدو مدينة عكا من يد السلطان قسراً

لما كان صبيحة يوم الثلاثاء التاسع من جمادى الأولى بلغ السلطان أن الأفرنج قد ضايقوا البلد وركبوا عليه المناجيق، فأمر الجاووش أن يصيح بالناس ، وركب وركب لركوبه العسكر فارسهم وراجلهم وسار حتى أتى الخروبة ، وقوى اليزك بتسيير جماعة من العسكر إليهم، فلم يخرج العدو، واشتد زحفهم على البلد، فضايقهم السلطان مضايقة عظيمة حتى قاتلهم قتالاً شديداً، وهجم عليهم في خنادقهم، ولم يزل كذلك حتى عادوا عن الزحف ظهيرة نهار الثلاثاء المذكور، وعاد السلطان إلى خيمة لطيفة ضربت له هناك يستظل بها من الشمس، فنزل لصلاة الظهر والاستراحة ساعة، وقوى اليزك، وأمر الناس بالعود إلى المخيم لأخذ شيء من الراحة ، فبينما هو كذلك إذ وصل من اليزك من أخبر أن القوم قد عادوا إلى الزحف، لما أحسوا بانصراف السلطان عنهم، أشد مما كانوا أولاً، فأمر العسكر بالعود إلى جهة العدو أطلاباً أطلابا، وبات هو رحمه الله وجميع العسكر على تعبية القتال، ثم سار العسكر في أواخر ليلة الأربعاء عاشر جمادى ا لأولى، إلى تل العياضية قبالة العدو، وضربت له خيمة لطيفة، وأمر الناس أن ينزلوا على التل حوله على العادة في منازلهم العام الماضي، لكن جرائد مع بقاء الثقل على الخروبة، ونازل العدو في ذلك اليوم مجمعين على القتال الشديد على البلد من جميع جوانبه، والسلطان يدور بين الأطلاب، ويحثهم على الجهاد ويرغبهم فيه، ولما رأى العدو تلك المنازلة خافوا من الهجوم على خيمهم فتراجعوا عن الزحف، وعاد السلطان إلى خيمته في تل العياضية، ورتب على خنادقهم من يخبر بحالهم ساعة فساعة، ثم إنهم بالغوا في مضايقة البلد،

ومبالغتهم في طم خندقه بالأتربة وغير ذلك حتى بموتى دوابهم، ونصبوا المجانيق والدبابات والسلالم، وجل همهم في طم خندق البلد،وألقوا فيه كل شيء، حتى آل أمرهم أنهم كانوا يلقون فيه موتاهم، وكانوا إذا جرح منهم واحد جراحة مميتة مؤيسة ألقوه فيه، وأما أهل البلد فإنهم انقسموا أقساماً، فقسم ينزلون إلى الخندق ويقطعون الموتى والدواب التي يلقونها فيه، وقسم ينقلون ما يقطعون إلى البحر ويلقونه فيه، وقسم يذبون عنهم، ويدافعون حتى يتمكنوا من ذلك، وقسم في المنجنيقات وحراسة الأسوار، ومع هذا قد أخذهم التعب والنصب ، وتكاثرت شكايتهم من ذلك، وقد ابتلوا ببلية لم يبتل بمثلها أحد، هذا والسلطان رحمه الله لايقطع الزحف عنهم، والمضايقة لخنادقهم بنفسه وخواصه وأولاده ليلاً ونهاراً، فحصلت هذه الأمور الشديدة ليلاً ونهاراً إلى أن وصل ملك الانكتار.

ذكر وصول ملك الانكتار

وقد وصل هذا اللعين يوم السبت الثالث عشر من جمادى الأولى بعد مصالحته لصاحب قبرس كما ذكرنا، وكان في جمع عظيم في خمس وعشرين شينيا ملوءة بالرجال والسلاح والعدد، وأظهر الأفرنج بقدومه سروراً عظيماً وفرحوا فرحاً شديدا، حتى أنهم أوقدوا تلك الليلة نيراناً عظيمة في خيامهم، وبلي الثغر منه بلاء لا يشبه ما قبله ، فعند ذلك حركت الكوسات في البلد، وكانت علامة بينهم وبين السلطان أيضاً كرسالة ، واقترب من البلد ليشغلهم عنه، وقد أحاطوا به من كل مكان، ونصبوا عليه سبعة مجانيق، وهي تضرب البلد ليلاً ونهاراً، ولا سيما على برج من جهة البر حتى أثر فيه أثراً بين وشرعوا في ردم الخندق بما أمكنهم من دواب ميتة ومن قتل منهم ومن مات أيضاً، وقاتلهم أهل البلد وهم ينقلون ما ألقوا فيه إلى البحر.

ذكر ما جرى على البطسة الاسلامية

ولما كان السادس عشر من جمادى الأولى من هذه السنة وصلت بطسة عظيمة للمسلمين من بيروت مشحونة بالآلات والمير والرجال والأبطال المقاتلة، وكان السلطان قد أمر بتعبيتها في بيروت وتسييرها، ووضع فيها من المقاتلة خلقاً عظيماً حتى تدخل البلد مراغمة للعدو، وكانت عدة رجالها ستمائة وخمسين رجلاً، فاعترضها ملك الانكتار اللعين في عدة شواني، وكان واقفا في البحر في أربعين مركباً لايترك شيئاً يصل إلى البلد بالكلية، فاحتاطوا بتلك البطسة من جميع جوانبها واشتدوا في قتالها، وجرى القضاء والقدر بأن وقف الهواء، فقاتلوا قتالاً شديداً، وقتل من العدو خلق عظيم، وأحرقوا من شوانيهم شينيا كبيرا فيه كبير، فهلكوا عن آخرهم وتكاثروا على أهل البطسة، وكان مقدمهم رجلاً جيداً شجاعاً مجرباً في الحرب، فلما رأى أمارات الغلبة عليهم، ورأى أنهم لابد أن يقتلوا، قال: والله لا نقتل في أيديهم ولا نموت إلا عن عز ولا نسلم إليهم من هذه البطسة شيئاً، فوقعوا في البطسة من جوانبها بالمعاول، ولم يزالوا كذالك حتى فتحوا فيها من كل جانب مثل الأبواب ، فامتلأت ماء وغرق كل من فيها، وما فيها من الآلات والمير وغير ذلك، ولم يظفر العدو بشيء منها أبداً، وكان اسم المقدم يعقوب، من أهل حلب، وتلقف العدو بعض من كان فيها وخلصوه من الغرق، ومثلوا به، وأنفذوه إلى البلد ليخبرهم بالوقعة، وحزن الناس لذلك حزناً شديداً، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ذكر حريق الدبابة الكفرية

وكان من لطف الله تعالى أن جبر المسلمين بأن مكنهم في اليوم الذي جرى على البطسة الاسلامية ما ذكرناه على حريق دبابة كان الفرنج قد اصطنعوها، وكانت هائلة عظيمة أربع طبقات: الأولى من الخشب،

والثانية من الرصاص، والثالثة من الحديد، والرابعة من النحاس، وكانت مشرفة على السور، وفيها المقاتلة، وقد قلق أهل البلد منها، وخافوا خوفاً شديداً بحيث أن أنفسهم حدثتهم من خوفهم من شرها أن يطلبوا الأمان من الأفرنج، ويسلموا البلد، وكان قد قربوها من السور بحيث لم يبق بينها وبين السور إلا مقدار خمسة أذرع على ما يشاهد برأي العين، وأخذ أهل البلد بتواتر ضربها بالنفط ليلاً ونهاراً حتى قدر الله حريقها واشتعال النار فيها، وظهرت لها ذؤابة نار نحو السماء ، وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل ، ورأى المسلمون ذلك جبراً لذلك الوهن، ونعمة بعد نقمة.

ذكر عدة وقعات بينهم وبين المسلمين من داخل وخارج

الأولى : كانت يوم الجمعة التاسع عشر من جمادى الأولى ، فإنهم زحفوا على البلد زحفاً عظيماً ، وضايقوه مضايقة شديدة، وكان قد استقر بينهم وبين المسلمين أنه متى زحف العدو عليهم دقوا كؤوسهم، فضربوا كؤوسهم فأجابت كؤوس السلطان رحمه الله، وركبت العساكر وضايقهم السلطان من خارج وزحف عليهم حتى هجم المسلمون عليهم في خيامهم، وتجاوزوا خنادقهم، وأخذوا القدور من أثافيها، وحضر من الغنيمة المأخوذة عند السلطان شيء، ولم يزل القتال يعمل حتى أيقن العدو أنهم قد هجم عليهم وأخذوا فتراجعوا عن قتال البلد، وشرعوا في قتال العسكر، وانتشبت الحرب بينهم ، ولم تزل حتى قام قائم الظهيرة وغشي الناس من الحر أمر عظيم من الجانبين، فتراجعت الطائفتان إلى خيامهم، وقد أخذ منهم التعب والحر. وانقضى القتال في ذلك اليوم.

الثانية: كانت يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى الأولى ، فدقوا الكؤوس على عادتهم فجاوبت كؤوس السلطان ، وثار القتال بين

الطائفتين، ولج العدو في مضايقة البلد ثقة منهم أن المسلمين لايهجمون على خيامهم وأنهم يهابونهم، فأكذب العسكر ظنونهم وهجموا على الخيام أيضاً، ونهبوا منها فتراجعوا إلى قتال المسلمين ولحق من المسلمين جماعة عظيمة داخل خنادقهم وأسوارهم وجرت بينهم وقعة عظيمة قتل فيها اثنان من المسلمين ، وجرحت جماعة من الأفرنج.

وقال قاضي القضاة بهاء الدين: أعجب ما في هذه الواقعة أنه كان وصل في ذلك اليوم رجل كبير من أهل مازندران يريد الغزاة، فوصل والحرب قائمة، فلقي السلطان واستأذنه في الجهاد، وحمل حملة عظيمة استشهد فيها في تلك الساعة ، ولما رأى الأفرنج دخول المسلمين إلى خنادقهم وتوغلهم إلى داخل أسوارهم حركتهم الحمية وبعثتهم النخوة فخرجوا إلى ظاهر أسوارهم، وحملوا على المسلمين حملة الرجل الواحد فثبت المسلمون لهم ثباتاً عظيماً لم يتحركوا عن أماكنهم، والتحم القتال من الجانبين ، وصبر المسلمون صبر الكرام، ودخلوا في الحرب بالاقتحام، ولما رأى الأفرنج صبرهم وثباتهم أنفذوا رسولاً في غضون ذلك، فبلغ الرسول أولاً إلى الملك العادل، وأخذه وأتى به إلى خدمة السلطان، ومعه الملك الأفضل أيضاً، مضمون رسالته أن ملك الانكتار يطلب الاجتماع بالسلطان، فأجاب السلطان في الحال بأن الملوك لايجتمعون إلا عن قاعدة، ولا يحسن الحرب بعد الاجتماع والمواكلة، وإذا أراد ذلك فلابد من تقرير قاعدة قبل هذه الحالة بترجمان يوثق به في الوسط، فإذا استقرت القاعدة وقع الاجتماع بعد ذلك إن شاء الله تعالى وينتظم.

الثالثة : كانت يوم السبت الثامن والعشرين من جمادى الأولى ، فخرج فارسهم وراجلهم على المسلمين من جانب البحر شمالي البلد، ولما علم السلطان ذلك، ركب وركب العسكر وانتشب القتال بينهم، وقتل من المسلمين بدوي وكردي، وقتل من العدو جماعة وأسر آخرون

منهم واحد بلبسه وفرسه، ومثل بين يدي السلطان، ولم يزل القتال يعمل إلى أن حجز الليل بينهم.

الرابعة: كانت يوم الأحد التاسع والعشرين من جمادى الأولى ، فخرج منهم رجالة كثيرة على شاطىء النهر الحلو، فلقيتهم طائفة من اليزك، وجرى بينهم قتال عظيم، ووصلت رجالة المسلمين، والتحم الحرب، فأسروا مسلماً وقتلوه وحرقوه، وأسر المسلمون منهم واحداً، فقتلوه وحرقوه.

قال القاضي بهاء الدين: ولقد رأيت النارين تشتعلان في زمان واحد، ثم مرض ملك الانكتار مرضاً شديداً أشفى منه على الهلاك، وخرج الأفرنسيس، وفارقهم المركيس، وسار إلى بلده صور خوفاً منهم أن يخرجوا ملكها من يده ، وبعث ملك الأنكتار إلى السلطان رحمه الله، فذكر أن عنده جوارح قد جاء بها من البحر، وهو على نية ارسالها إليه، ولكنها قد ضعفت ، وهو يطلب لها دجاجاً وطيراً لتتقوى بذلك، فعرف السلطان أنه إنما يطلب ذلك لنفسه بتلطف وحيلة، وحمل إليه بشيء كبير من ذلك كرماً منه وسجية وحشمة، ثم أرسل يطلب فاكهة وثلجاً، فأرسل إليه أيضاً، فلم يفد معه الاحسان، بل لما عوفي عاد إلى أشر مما كان عليه، واشتد الحصار ليلا ونهاراً، وأرسل من بالبلد يقولون : إن لم تعملوا معنا شيئاً غدا وإلا طلبنا من الأفرنج أمانا، فشق ذلك على السلطان، وكان أمراً عظيماً، وذلك لأنه قد سير إليها أسلحة الشام والديار المصرية وسائر السواحل، وما كان من غنيمة وقعة حطين، ومن بيت المقدس وهي مشحونة بذلك، فعزم السلطان على مهاجمة العدو، فلما أصبح ركب في جيشه، وهذه هي الواقعة:

الخامسة: ورأى السلطان أن الأفرنج ركبوا من وراء خندقهم والرجالة منهم قد ضربوا سوراً حول الفرسان، وهم قطعة من حديد لا ينفذ بها

شيء، فأحجم عنهم لما يعلم من نكول جيشه، ولكنه ما رجع إلا عن قتال إلى أن حجز الليل.

ذكر قدوم بقية عسكر المسلمين

ولما كان يوم الثلاثاء سلخ جمادى الأولى قدم فيه عسكر سنجار مقدمهم مجاهد الدين يرنقش، فلقيه السلطان فاحترمه وأكرمه، وكان دينا عاقلا محبا للغزو، وأنزله السلطان في الميسرة، وذلك بعد أن أنزله في خيمته، وفرح بقدومه فرحا شديدا، ثم قدم بعد ذلك قطعة عظيمة من عسكر مصر وفيهم علم الدين كرجي، وسيف الدين سنقر الدوادار، ثم قدم بعد ذلك علاء الدين ابن صاحب الموصل في عسكره فلقيه السلطان بالخروبة، ونزل هناك إلى بكرة الغد من اليوم الثاني من شهر جمادى الآخرة، ثم أصبح سائرا حتى أتى بجحفله قبالة العدو، فعرض عسكره هناك وأنزله السلطان في خيمته وحمل له من التحف ما يليق بكرمه،وأنزله في الميمنة، وفي يوم الجمعة ثالث جمادى الآخرة قدمت طائفة من عسكر مصر أيضا، واشتد مرض ملك الانكتار بحيث شغل الفرنج مرضه، وكان ذلك جبرا عظيما ولطفا جسيما من الله تعالى،فإن البلد ضعف من كان فيه ضعفاعظيما،واشتد الخناق شدةعظيمة،وهدمت المنجنيقات من السور مقدار قامة الرجل، ومع هذا فاللصوص يدخلون عليهم في خيامهم ويسرقون أقمشتهم ونفوسهم ويأخذون الرجال بأن يجيء جماعة إلى واحد منهم وهو نائم، ويضعون على حلقه السكين ثم يوقظونه ويقولون له بالاشارة إن تكلمت ذبحناك ويحملوه ويخرجون به إلى عسكر المسلمين، وجرى ذلك مرارا عديدة.

ذكر قوة زحفهم على البلد لعنهم الله

ولم يزالوا يوالون على الأسوار بالمنجنيقات المتواصلة الضرب بثقيل

أحجارها حتى خلخلوا أسوار البلد وأضعفوا بنيانها، وأنهك التعب والسهر أهل البلد لقلة عددهم، وكثرة الأعمال عليهم حتى أن جماعة منهم بقوا ليالي عدة لا ينامون أصلا لا ليلاً ولا نهارا، والخلق الذين عليهم عدد كثيرة يتناوبون على القتال، ولما أحسوا بضعف المسلمين شرعوا في الزحف من كل جانب وانقسموا أقساما ، وتناوبوا فرقا كلما تعبت طائفة استراحت وقام غيرهم مقامهم ، وشرعوا في ذلك شروعا عظيما براجلهم وفارسهم، وذلك في اليوم السابع من جمادى الآخرة من هذه السنة، هذا مع عمارتهم أسوارهم الدائرة على خنادقهم بالرجالة والمقاتلة ليلا ونهارا، فلما علم السلطان بذلك ركب وركب العسكر بأسرهم وجمع الراجل والفارس ووعدهم ورغبهم ، وزحف على خنادق القوم حتى دخل فيها العسكر عليهم، وجرى في ذلك اليوم قتال عظيم من الجانبين، والسلطان رحمه الله كالوالدة الثكلى يتحرك بفرسه من طلب إلى طلب، ويحث الناس على الجهاد والملك العادل رحمه الله حمل بنفسه في ذلك اليوم مرتين، والسلطان يطوف بين الأطلاب وينادي باسمه يا للاسلام وعيناه تذرفان بالدمع، وكلما نظر إلى عكا وما حل بها من البلاء ، وما يجري على ساكنيها من المصاب العظيم اشتد في الزحف والحث على القتال، ولم يطعم في ذلك اليوم طعاما البتة، وإنما شرب بعض أقداح مشروب كان يشير بها الطبيب.

وقال قاضي القضاة بهاء الدين رحمه الله: وتأخرت عن حضور هذه الزحوف لما عراني مرض مشوش لمزاجي وكنت في الخيمة المضروبة في تل العياضية، وأنا أشاهد الجميع، ولما هجم الليل عاد السلطان إلى الخيمة بعد عشاء الآخرة وقد أخذ منه التعب والحزن فنام إلا من غفو، ولما كان وقت السحر أمر بدق الكوسات ، فركب وركبت العساكر من كل جانب، وأصبحوا على ما أمسوا عليه، وفي هذا اليوم وصلت بطاقة من البلد يقولون فيها : إنا قد بلغ بنا العجز إلى غاية، فما بعدها إلا التسليم، ونحن في الغد ـ يعني يوم الأربعاء الثامن من جمادى الآخرة ـ إن لم

تعملوا معنا شيئا نطلب الأمان، ونسلم البلد، ونشتري مجرد رقابنا، وكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين وأنكاه في قلوبهم، فإن عكا كانت قد احتوت على سلاح جميع الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر وجميع البلاد الاسلامية، واحتوت على كبار من أمراء الاسلام وشجعانهم كسيف الدين المشطوب وبهاء الدين قراقوش وغيرهما، وكان قراقوش ملازما لحراستها منذ نزل العدو المخذول عليها ، وحصل للسلطان من ذلك أمر عظيم وخيف على مزاجه التشوش، وهولا يقطع ذكر الله والرجوع إليه في جميع ذلك ، وهو صابرمحتسب ملازم مجتهد، ثم صاح في العسكر منادي من جهته، فركبت الأطلاب، واجتمع الراجل والفارس واشتد الزحف في ذلك اليوم، ولم يساعده العسكر في ذلك اليوم في الهجوم عليهم ، فإن الرجالة من الأفرنج وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح والزنبورك والنشاب من وراء أسوارهم، وهجم عليهم بعضهم من بعض الأطراف فثبت المسلمون وذبوا غاية الذب، ولم يزل الحرب يعمل بينهم بقتل وجرح حتى حجز الليل بين الطائفتين.

ومن الغرائب أن امرأة منهم واقفة داخل سورهم عليها ملوطة خضراء، ولم تزل ترمي المسلمين بقوس من خشب حتى جرحت جماعة منهم، فتكاثر عليها المسلمون الذين دخلوا أسوارهم فقتلوها وأخذوا قوسها وحملوه إلى السلطان فتعجب من ذلك عجبا عظيما.

وكذلك كان هناك أفرنجي راجل صعد سور خندقهم، وإلى جانبه جماعة يناولونه الحجارة وهو يرميها على المسلمين الذين يلاصقون سور خندقهم، ولقد حكى من كان من الداخلين سورهم أنه وقع فيه زهاء خمسين حجرا وهو يتلقاها ولا يمنعه ذلك عما هو بصدده من الذب والقتال حتى ضربه مسلم زراق بقارورة نفط فأحرقه.

ولما اشتد زحفهم على البلد وتكاثروا عليه من كل جانب، وقلت

رجال البلد ضعفت نفوسهم لما رأو الهلاك حقيقة، واستشعروا الضعف والخذلان، وتمكن العدو من الخنادق فملأوها، وتمكنوا من سور البلد والباشورة فنقبوا وأشعلوا فيه النار، ووقعت بدنة من الباشورة ، ودخلوا فيها ، وقتل منهم فيها زهاء مائة وخمسين نفسا ، وكان منهم ستة أنفس من كبارهم، فقال لهم واحد منهم: لا تقتلوني حتى أرحل الفرنج عنكم بالكلية، فبادر رجل من الأكراد فقتله وقتل الخمسة الباقية، وفي غد ذلك اليوم نادى الفرنج: احفظوا هؤلاء الستة فإنا نطلقكم كلكم بهم، فقالوا: قد قتلناهم، فحزنوا لذلك حزنا عظيما، وبطلوا عن الزحف بعد ذلك ثلاثة أيام

ذكر خروج سيف الدين المشطوب إليهم

ولما قتل المسلمون الستة المذكورين حنق الفرنجة عليهم جدا، وجاء الليل فحال بين الفريقين، ولما أصبح الصباح خرج أمير المسلمين بالبلد سيف الدين أحمد بن علي المشطوب، فاجتمع بملك الافرنسيس وطلب منه الأمان على أنفسهم ويتسلمون منه البلد، فلم يجبه إلى ذلك وقال له: بعد ما سقط السور جئت تطلب الأمان ؟، فأغلظ له الأمير سيف الدين في الكلام، ورجع إلى البلد في حال الله بها عليم، ولما أخبر أهل البلد بذلك خافوا خوفا شديداً،وأرسلوا إلى السلطان يعلمونه بذلك.

وقال صاحب النوادر:ولما جرى ذلك أخذ جماعة من أهل البلد بركوساً - وهو مركب صغير - وركبوا فيه ليلاً خارجين إلى العسكر الاسلامي، وذلك في ليلة الخميس التاسع من جمادى الآخرة من هذه السنة، وكان فيهم من المعروفين: أرسك وابن الجاولي الكبير وسنقر الوشاقي، فأما أرسك وسنقر فإنهما لما وصلا العسكر تغيبا ولم يعرف لهما مكان خشية من نقمة السلطان رحمه الله، وأما ابن الجاولي فإنه ظفر به ورمي في الزردخاناه.

وفي سحرة تلك الليلة ركب السلطان مشعراً أنه يريد كبسة القوم ومعه المساحي وآلات طم الخنادق، فما ساعده العسكر، وتخاذلوا عن ذلك، وقالوا: نخاطر بأهل الاسلام كلهم ولا مصلحة في ذلك،وفي ذلك اليوم خرج من ملك الانكتار ثلاثة رسل، فطلبوا فاكهة وثلجاً وذكر وا أن مقدم الاسبتارية يخرج من الغد - يعني يوم الجمعة - فيتحدث معكم في الصلح، فأكرمهم السلطان، ودخلوا سوق العسكر وتفرجوا فيه، وعادوا تلك الليلة إلى عسكرهم، وفي ذلك اليوم تقدم صارم الدين قايماز النجمي حتى يدخل هو وأصحابه إلى أسوارهم عليهم، وترجل جماعة من أمراء الأكراد كالجناح وأصحابه، وهو أخو المشطوب، وزحفوا حتى بلغوا أسوار الفرنج، ونصب قايماز علمه بنفسه على سورهم وقاتل قطعة من النهار، وفي ذلك اليوم وصل عز الدين جرديك النوري، وسوق الزحف قائم ، فترجل هو وجماعته وقاتل قتالاً شديداً ، واجتهد الناس في ذلك اليوم اجتهاداً عظيماً، ولما كان يوم الجمعة العاشر من جمادى الآخرة، خرج منهم ثلاثة رسل واجتمعوا بالملك العادل وتحدثوا معه ساعة زمانية وعادوا إلى أصحابهم، ولم ينفصل الحال في ذلك اليوم، ولما كان يوم السبت الحادي عشر من جمادى الآخرة لبست الأفرنج بأسرهم لباس الحرب،وتحركوا حركة عظيمة واصطفوا ، وتصرم هذا النهار ولم ينفصل الحال، ولما كان يوم الأحد الثاني عشر من جمادى الآخرة وصل من البلد كتب يقولون فيها: إنا قد بايعنا على الموت، فلا نزال نقاتل ولا نسلم هكذا البلد ونحن أحياء ، فانظروا أنتم كيف تصنعون في شغل العدو عنا، ولا تخضعوا لهؤلاء الملاعين، وبالله المستعان، فلما سمع السلطان هذا الخبر حط منديله على عينيه، وبكى بكاء شديداً وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، وفي يوم الثلاثاء الرابع عشر من جمادى الآخرة قدم الأمير سابق الدين صاحب شيزر، وفي يوم الأربعاء خامس عشر قدم بدر الدين دلدرم ومعه تركمان كثير، وكان السلطان قد نفذ إليه ذهباً كثيراً أنفق فيهم، وقدم في يوم الخميس سادس عشر أسد الدين شيركوه،

ومع هـذا اشتد الحال على أهل البلد، فـأرسل السلطان إليهـم أن يخرجوا من البلـد في البحر ولا يتأخـروا عن هـذه الليلة، فتشاغـل كثير منهم في جمع الأمتعـة والأسلحة، وتـأخـروا عـن المسير في تلك الليلـة، فما أصبـح الخبر إلا عند الأفرنـج من مملوكين صغيرين سمعا بما رسـم به السلطان، فهربا إليهم فـأخبراهم بذلك، فاحتفظوا على البحـر احتفاظاً عظيماً، فلم يتمكـن أحـد من أهـل البلـد أن يتحـرك بحـركه، ولا خـرج منهـا شيء بالكلية، فلما أصبح السلطان بعث إلى ملـوك الأفرنج يطلب منهم الأمان لأهـل البلـد على أن يطلـق عـدتهم مـن الأسرى الـذيـن تحت يـده مـن النصارى، ويزيـدهم على ذلك صليب الصلبوت، فأبـوا إلا أن يطلق كل أسير تحت يده ويعيـد إليهم جميـع البلاد السـاحلية التـي أخذت منهـم وبيت المقـدس، فأبى السلطان مـن ذلك، وترددت المراسـلات في ذلك، والحصار يتـزايد على أسوار البلـد، وقد تهدم شيء كبير منهـا وكلما ينهدم شيء يعيد المسلمـون عوضه، وصبروا على ذلك صبراً عظيماً، ولما كـان يوم الجمعـة السـابع عشر مـن جمادى الآخـرة صـالحهم أهـل البلـد على أن يسلموا البلـد وجميع ما فيـه من العـدد والآلات والمراكب، ومائتـي ألف دينار، وألف وخمسمائة أسير مجاهيل الأحـوال، ومائة أسير معينين وصليب الصلبـوت، على أن يخرجـوا بـأنفسهـم سالمين ومـا معهـم مـن الأمـوال والأقمشـة المختصة بهم وذراريهم ونسـائهـم، وضمنـوا للمركيـس اللعين بعشرة آلاف دينـار لأنـه كـان واسطـة، ولأصحـابـه أربعـة آلاف دينـار، واستقرت القاعدة على ذلك بينهم وبين الفرنج.

ولما وقف السلطـان على ذلك أنكر انكاراً عظيماً وجمع أربـاب المشورة من أرباب دولتـه وعرفهم بذلـك، وعزم على أن يكتب في تلك الليلـة مع العوام، وينكر عليهم المصالحة على هذا الـوجه، فما أحسوا بذلك إلا وقد ارتفعـت أعلام الكفـر وصلبـانه على أسـوار البلـد، وذلك في ظهيرة يـوم الجمعة المذكـور الآن، وصاح الأفـرنج صيحـة واحدة، وعظمـت المصيبة على المسلمين، واشتـد حـزن الموحـديـن، ووقـع مـن العسكـر الصيـاح

والعـويل والبكـاء والنحيـب، ودخل المركيـس اللعين البلـد ومعه أربعـة أعـلام للملوك، فنصـب علماً على القلعة، وعلما على بـرج الداويـة، وعلماً على برج القتـال عوضاً عن علـم الاسلام، وتحيز المسلمون الـذين بها إلى نـاحيـة من البلـد معتقلين مضيقـاً عليهـم، وقد أسرت النسـاء والأبنـاء، وغنمت منهم الأموال ، وقيدت الأبطال، وأهينت الرجال.

ولما رأى السلطان ذلـك، رأى التأخر عـن تلك المنـزلة التي هـو فيها مصلحة، فإنه لم يبق وجه من المضايقة، وأمر بنقل الأثقال ليلاً إلى المنزلة التي كـان عليها أولاً بشفـرعم، وأقـام هو جـريدة في مكـانه لينظـر ماذا يكون مـن أمر العـدووحـال أهل البلـد، فانتقـل الناس في تلـك الليلة إلى الصبـاح، وفي ذلك اليـوم خـرج ثلاثـة نفر ومعهـم أقـوش حاجـب بهاء الـدين قـراقـوش، وكـان بشأن محتـوى مـا وقـع عليه الصلـح مـن المال والأسرى، فـأقـامـوا ليلـة ثـم سـاروا إلى دمشـق يبصرون الأسرى، وكـان مسيرهم يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من جمادى الآخرة.

ولما كان يـوم الخميس سلخ جمادى الآخـرة خرج الأفـرنج من جـانب البحـر شمالي البلـد ومـن جانـب القنـة وانتشروا انتشـاراً عظيماً راجلهـم وفارسهـم، وضربوا أطلابـاً للقتال، فأخبر اليزك بـذلك السلطان، فـدقوا الكوسات وركب السلطـان وأنفذ إلى اليزك وقواهم برجـال كثيرة، وتوقف هـو حتى تـركـب العساكـر الاسـلامية واجتمعـوا فـوقع بين اليـزك وبين الأفرنـج وقعة عظيمة وقتـال شديد قبـل اتصال العسـاكر باليـزك، فقتل اليزك منهـم زهاء خمسين نفـراً، وجرح خلق عظيـم،وفي ذلك اليـوم وصل رسل الفرنـج الذين مضوا إلى دمشـق لتفقد حال أسراهم، ووصـل معهم من أعيان أسراهـم أربعة نفر، ثم لم تزل الرسـل تتردد بين الطائفتين حتى كان يوم الجمعة تاسع رجب مـن هذه السنة، وفي ذلك اليوم خرج حسام الدين حسين بن باريك المهراني ومعـه اثنان من أصحاب ملك الانكتار، فأخبر أن ملـك الفرنسيـس سار إلى صـور، وطلبوا أن يشـاهدوا صليـب

الصلبوت وأنه هل هو في العسكر أو حمل إلى بغداد، فأحضر صليب الصلبوت، فلما رأوه سجدوا له وألقوا أنفسهم إلى الأرض ومرغوا وجوههم في التراب، وبعثوا يطلبون من السلطان ما أحضر من المال والأسرى والصليب فامتنع السلطان إلاّ أن يرسلوا إليه من بأيديهم من الأسارى أو يبعثوا إليه برهائن عنده على ذلك، فقالوا : لا ولكن ترسل ذلك وترضى بأمانتنا فيهم فعرف أنهم يريدون الغدر والمكر، فلم يرسل ذلك إليهم، وأمر برد الأسارى إلى دمشق وبالصليب معهم مهانا ، ولما رأوا ذلك أخرجوا خيامهم إلى ظاهر خنادقهم مبرزين في نهار الأربعاء الحادي والعشرين من رجب من هذه السنة، وكان الذي برز ملك الانكتار ومعه خلق عظيم من الخيالة والرجالة، وأحضروا ثلاثة آلاف من المسلمين في صعيد واحد فأوقفوهم وهم موثوقون في الحبال، وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد فقتلوهم صبراً ضرباً وطعناً، وذلك يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب.

قال صاحب النوادر: وكانوا قدموا خيامهم حتى توسطوا المرج بين تل كيسان وتل العياضية، وكان اليزك الاسلامي قد تأخر إلى تل كيسان،ولما كان يوم الخميس التاسع والعشرين من رجب ركبت الأفرنج بأسرهم وقلعوا خيامهم وحملوها على دوابهم، وساروا حتى قطعوا النهر إلى الجانب الغربي وضربوا الخيام على طريق عسقلان، وأظهروا العزم على المسير على شاطىء البحر، ولم يستبقوا من المسلمين إلاّ من كان أميراً أو شريفاً أو من كان له صنعة هم محتاجون إليها أو امرأة أو صبياً، ثم رحلوا نحو عسقلان.

ذكر رحيل الأفرنج صوب عسقلان

لما كان يوم الأحد مستهل شعبان من هذه السنة اشتعلت نيران الأفرنج في سحرة ذلك اليوم، وكانت عادتهم أنهم إذا أرادوا الرحيل

أشعلوا النيران، ولما أخبر السلطان بذلك أمر أن لايبقى أحد إلا على ظهر مركبه، فهلك من الناس في ذلك اليوم قماش كثير، ولاسيما من السوقة لقلة الظهر، ثم سار الأفرنج في ذلك اليوم قاصدين عسقلان، وركب السلطان أيضاً بعساكره وهم يسايرونهم ويعارضونهم منزلة منزلة ومرحلة مرحلة، وكانت مدة إقامة السلطان على عكا صابراً مرابطاً سبعة وثلاثين شهراً، وجملة من قتل من الفرنج في هذه المدة خمسون ألفاً، وسار السلطان حتى آتى القيمون عصر ذلك النهار فنزل وقد ضرب له دهليز وشقة دائرة حوله لا غير، واستحضر الجماعة وأكلوا شيئاً، واستشارهم فيما يفعل فاتفقوا على أنهم يرحلون بكرة غد، وقد رتب حول الفرنج يزكاً يبيتون حولهم ويرقبون أمرهم ، ولما كان صباح الاثنين الثاني من شعبان أرسل السلطان الثقل، وأقام هو يترصد أخبار العدو فلم يصل اليه شيء من خبرهم حتى علا النهار، ثم سار في إثر الثقل حتى أتى قرية يقال لها صباغين ، فجلس ساعة يترقب أخبارهم فلم يأت خبر، فسار حتى أتى منزلة يقال لها عيون الأساود.

قال قاضي القضاة بهاء الدين رحمه الله: ولما بلغنا المنزلة رأى السلطان خيماً فسأل عنها، فقيل إنها خيم الملك العادل، فعدل إليه فأقام عنده ساعة ثم أتى خيمته، وفقد الخبز في هذا المنزل بالكلية وغلا الشعير حتى بلغ الربع بدرهم، وبلغ الرطل من البقسماط بدرهمين، ثم ركب السلطان وسار إلى موضع يسمى الملاحة يكون منزلاً للعدو إذا رحلوا من حيفا، وكان السلطان قد سبق ليتفقد المكان وأنه هل يصلح للمصاف أم لا، وتفقد أراضي قيسارية بأسرها إلى الشعراء، وعاد إلى المنزل بعد دخول وقت العشاء.

قال قاضي القضاة بهاء الدين: وكنت في خدمته، وسألته عما بلغه من خبر العدو فقال: وصل إلينا من أخبرنا من أصحابنا أنهم ما رحلوا من حيفا إلى عصر يومنا هذا يعني يوم الاثنين ثاني شعبان، وبات تلك

الليلة وأصبح مقيماً بتل الزلزلة ينتظر العدو، ونادى بالعرض، فركب الناس على ترتيب المصاف ميمنة وميسرة وقلباً، ثم عاد إلى الخيمة، وعاد الناس وقد علا النهار، ثم صلى السلطان الظهر وجلس يطلق أثمان الخيول المجروحة وغيرها إلى عشاء الآخرة من مائة دينار إلى مائة وخمسين وزائداً وناقصاً، ثم اتفق الرأي على رحيل الثقل في عصر ذلك اليوم إلى مجدل يابا، ونزل الثقل بالمجدل بكرة النهار، وأقام هو باليزك جريدة إلى الصباح، ثم رحلوا إلى جهة العدو، فرحل الثقل من وقت العشاء، ولم يبق مع السلطان إلاّ خف من الأقمشة، وبات في منزله إلى الصباح يوم الأربعاء الرابع من شعبان، ثم ركب وسار إلى رأس النهر الجاري إلى قيسارية، ونزل جريدة هناك، وبلغ الرطل من البقسماط إلى أربعة دراهم، والربع من الشعير إلى درهمين ونصف، ولم يوجد الخبز أصلاً، ونزل في خيمته قريب صلاة الظهر وأكل شيئاً وصلى الظهر وركب إلى طريق العدو، فلم يعد إلى أن دخل وقت العصر، فجلس ساعة ثم ركب في آخر نهار الأربعاء المذكور، ولما نزل أتى باثنين من الفرنج قد أخذهما اليزك فأمر بضرب رقابهما، وأصبح مقيماً بتلك المنزلة، ثم ركب في وقت عادته وأشرف على قيسارية وقد وصله الخبر بأن العدو لم يرحل من الملاحة، وأحضر عنده اثنان أيضاً فقتلا أشر قتلة، ثم أحضر بين يديه منهم فارس مذكور، وسأله عن أحوال القوم وعن السعر ، فأخبر الترجمان: إن أول يوم من رحيلنا من عكا كان الانسان يشبع بستة قراطيس، فلم يزل السعر يغلو حتى صار يشبع بثمانية قراطيس، وسأله عن سبب تأخرهم في المنازل، فقال: لانتظارهم وصول المراكب بالرجال والميرة، وسأله عن القتلى والجرحى في يوم رحيلهم فقال: كثير، وسأل عن الخيل التي هلكت في ذلك، فقال: مقدار أربعمائة فرس، ثم أمر بضرب عنقه، ثم ركب السلطان بعد صلاة العصر يوم الخميس خامس شعبان إلى أن نزل ، واتى باثنين فأمر بقتلهما، وذكر له في وقت السحر أن العدو تحركوا نحو قيسارية وقارب أوائلهم البلد، فرحل إلى تل قريب من التل الذي كانوا عليه، وضربت الخيام، ومضى السلطان يرتاد الأراضي

الكائنة في طـريق العدو لينظر أيها تصلـح للمصاف، ونزل قريـب الظهر واستدعى أخاه الملك العادل وعلم الدين سليمان بن جندر، وأخذرأيهما ، ثم صلى الظهر وركـب للتشوف على العدو، وتنسم أخبارهـم، وأتاه اثنان منهم قـد أخذا فـأمر بقتلهما، ثـم باثنين آخـرين كـذلك في يـوم الجمعة سادس شعبـان، وجيء باثنين آخـرين في آخـر النهار فقتلا أيضـاً، ثم لما أصبح نادى الجاووش لعرض أجناد الحلقـة لاغير، فركب إلى جهة العدو، ووقف على تلول مشرفة على قيسـارية، وكان الأفرنج قد وصلـوا إليها يوم الجمعة ، ولم يزل يعـرض هناك إلى أن علا النهار، ثم نزل وأكـل شيئاً، ثم ركب إلى أخيـه، وعاد بعـد صلاة الظهر فصلى الظهـر، فأتي بـأربعة عشر من الأفرنـج وامرأة فرنجية بينهـم أسيرة، وهي بنت فارس مشهـور، ومعها أسيرة مسلمة قد أخذتها فأطلقت المسلمة، ورفـع الباقون إلى الزرد خاناه، وهؤلاء أتي بهم من بيروت، أخذوا في مركب من جملة عدد كثير، فقتلوا في نهار السبت سابع شعبان، ولما كان صبيحة يـوم الأحد الثامن من شعبان ركب السلطان على عـادته، ثم نزل فجاء من أخبر أن العـدو على حركة، وأتى ثان آخر وأخبرهم أنهم ساروا فأمـر بالكؤوس فدقت، وركب الناس معه وساروا.

قال القـاضي بهاء الديـن: وكنت في خـدمته حتـى أتى بمـن معه إلى عسكر العـدو، فصف الأطـلاب حولـه وأمر بقتـالهم، وأخرج الجاليـش، وكان النشاب بينهـم كالمطر، وكان على الفـرنج اللبود الثخينة والـزرديات السابغـة المحكمة بحيـث يقع النشـاب ولا يؤثر وهـم يرمـون بالـزنبورك فتجرح خيول المسلمين.

قـال القـاضي: ولقد شـاهـدتهم يتغـرز نشـابـة في ظهر واحـد منهـم ونشابتـان وثلاثة إلى عشرة وأكثر وهـو يسير على هيئته من غير انـزعاج ، وكانوا قـد أنقسموا ثلاثة أقسـام: الأول الملك العتيق كي وأهـل الساحل معه في المقـدمة، والانكتار والفـرنسية معـه في الوسط، وأصحـاب طبرية

وطائفة أخرى في الساقة، وفي وسط القوم برج على عجلة كالمنارة عليها علمهم، وسوق الحرب قائمة بين الطائفتين، وهم يسيرون سيراً رفيقاً، ومراكبهم تسير في مقابلتهم في البحر إلى أن أتوا المنزل ونزلوا ، وكانت منازلهم قريبة لأجل رجالتهم، فإن المستريحين منهم كانوا يحملون أثقالهم وخيمهم على ظهورهم لقلة الظهر بينهم فانظر إلى هؤلاء الأشقياء وإلى صبرهم على هذه الأعمال من غير أجر ومن غير دنيا ودين، وكان منزلهم ذلك قاطع نهر قيسارية، ولما كانت صبيحة الاثنين التاسع من شعبان وصل من أخبر أنهم ركبوا سائرين وركب السلطان أول الصبح ، وسار يطلب القوم، وهم سائرون على عادتهم ثلاثة أطلاب، ثم لم يزل المسلمون يكرون عليهم ويحملون عليهم إلى أن أتوا إلى نهر يقال له نهر القصب، فنزلوا عليه، وقد قام قائم الظهيرة، وفي ذلك اليوم قتل من فرسان الاسلام وشجعانهم إياز الطويل من مماليك السلطان، ودفن على تل مشرف على البركة، ونزل السلطان بالثقل على البركة، وهو موضع تجتمع فيه مياه كثيرة، وأقام هناك إلى بعد صلاة العصر، ثم رحل وأتى نهر القصب فنزل عليه، وكان المسلمون يشربون من أعلاه والأفرنج من أسفله، وليس بينهم إلا مسافة يسيرة، وبلغ الربع من الشعير في هذه المنزلة إلى أربعة دراهم، والخبز كثير موجود، والرطل منه بنصف درهم، وأقام السلطان ينتظر رحيل الفرنج حتى يرحل في مقابلتهم، وباتوا تلك الليلة هناك ووقع حرب بين طائفتين منهم ومن المسلمين، فقتل من الفرنج جماعة ومن المسلمين اثنان وأسر منهم ثلاثة، فسأل السلطان عنهم فأخبروا أن ملك الانكتار كان قد حضر عنده بعكا اثنان بدويان فأخبرا بقلة عدد العسكر الاسلامي، ولما جرى بالأمس ما جرى طلب البدويين فضرب أعناقهما، وأخبروا أن المجروحين منهم كانوا زهاء ألف نفس، والمقتولين جماعة ، ولما كان ظهر يوم الثلاثاء العاشر من شعبان رأى السلطان التقدم على العدو فدق الكؤوس ورحل ودخل في شعراء أرسوف حتى توسطها إلى تل عند قرية تسمى دير الراهب، فنزل هناك وأقام ينتظر بقية العساكر إلى صباح الأربعاء الحادي عشر من شعبان،

وجاء من أخبار العدو أنهم مقيمون على نهر القصب، وأنه لحقهم نجدة من عكا في ثماني بطس كبار، ويزك الاسلام حولهم يواصلون بالأخبار التي تتجدد، وجرى بين اليزك وحشاشة الأفرنج قتال، وجرحت جماعة من الطائفتين، وكان مقدم اليزك علم الدين سليمان بن جندر، فأرسلوا إليه من يسمع كلامه، وحاصل سؤالهم الاستئذان بالاجتماع بالملك العادل، فأذن له السلطان في المضي إليهم، فجاء إلى اليزك وبلغ الخبر إلى ملك الانكتار، فاجتمعا بحده من أصحابهما، وكان يترجم بينهما ابن الهنفري، وهو من فرنج الساحل من كبارهم.

قال قاضي القضاة: ورأيته يوم الصلح وهو شاب حسن، إلا أنه محلوق اللحية على شعارهم، وكان كلام الرسول في الصلح طلب عود البلاد إليهم كما كانت، وأن المسلمين ينصرفون إلى بلادهم، فلما سمع العادل هذا الكلام أغلظ في الجواب وجرت منافرة واقتضت أنهم رحلوا، وأما الأفرنج فانهم نزلوا على موضع يسمى البركة مشرف على البحر ، وأصبح السلطان في صبيحة يوم الجمعة الثالث عشر من شعبان في قرية تسمى بركة وأقام مطلب الاطلاب متطلعاً إلى أخبار الافرنج، وأحضر عنده اثنان منهم قد مسكهما اليزك فأمر بضرب أعناقهما.

ذكر وقعة أرسوف

ولما كان يوم السبت الرابع عشر من شعبان بلغ السلطان أنهم قد تحركوا للرحيل نحو أرسوف، فركب ورتب الأطلاب للقتال، وعزم في ذلك اليوم على مصافة القوم، وأخرج من كل طلب جاليشاً وسار الأفرنج حتى قاربوا شعراء أرسوف وبساتينها، وأطلق عليهم الجاليش النشاب ولزتهم الأ طلاب من كل جانب ، والتحم القتال واضطربت نارها من الجانبين، وقتل منهم طائفة وجرح آخرون، واشتدوا في السير

لعلهم يبلغون المنزلة فينزلون، واشتد بهم والسلطان رحمه الله يطوف من الميمنة إلى الميسرة، ويحث الناس على الجهاد.

وقال قاضي القضاة بهاء الدين: لقيته مراراً وليس معه إلاّ صبيان بجنبيه لا غير، ولقيت أخاه وهو على مثل حاله، والنشاب يتجاوزهما، ولم يزل الأمر يشتد بالفرنج، وطمع فيهم المسلمون طمعاً عظيماً حتى وصل أوائل راجلهم إلى بساتين أرسوف، ثم اجتمعت الخيالة وتواضعوا على الحملة فحملوا حملة واحدة من الجوانب كلها، فحملت طائفة على الميمنة وطائفة على الميسرة وطائفة على القلب، فاندفع الناس بين أيديهم.

قال قاضي القضاة: واتفق أني كنت في القلب ، ففر القلب فراراً عظيماً، فنويت التحيز إلى الميسرة وكانت أقرب إليّ فوصلتها وقد انكسرت كسرة عظيمة، ثم نويت التحيز إلى الميمنة فرأيتها وقد فرت أشد فراراً من الكل، ثم نويت التحيز إلى السلطان، وكان ردأ الاطلاب كلها كما جرت عادته بذلك، فأتيته ولم يبق معه إلا سبعة عشر مقاتلاً لا غير، لكن الأعلام كلها باقية، والكوسات تدق لاتفتر، ثم وقف الأفرنج خوفاً من الكمين، وقاتلوا وهم واقفون ،ثم حملوا حملة ثانية، ففروا وهم يقاتلون في فرارهم، ثم وقفوا وحملوا ثالثة حتى بلغوا إلى رؤوس رواب هناك وأعالي تلول، وقفوا هناك، وأما المسلمون بعد أن فروا فقالوا كل من رأى طلب السلطان واقفاً والكوسات تدق يستحي أن يتجاوزه، ويخاف غائلة ذلك، ويعود إلى الطلب، فاجتمع عند الطلب خلق عظيم، ووقف الأفرنج قبالتهم على رؤوس التلال والروابي والسلطان رحمه الله واقف في طلبه لايتحرك حتى رجعت الناس بأسرهم، وخاف الأفرنج أن يكون في الشعراء كمين فتراجعوا يطلبون المنزلة ، وعاد السلطان إلى تل في أوائل الشعراء ونزل عليه بلا خيمة، وقال قاضي القضاة: ولقد كنت في خدمته وأسليه وهو لايقبل ، وظلل عليه بشيء ، وأحضر بين يديه شيء من الطعام فتناول شيئاً يسيراً، وبعث الناس خيولهم للسقي، فإن الماء كان

بعيداً، وجلس ينتظر حتى يعودوا من السقي، والجرحى يحضرون بين يديه وهو يداويهم ويحملهم وقتل في ذلك اليوم رجالة كثيرة وجرحت جماعة من الطائفتين، وكان ممن ثبت في هذه الوقعة الملك العادل والطواشي قاياز النجمي والملك الأفضل ولد السلطان، صدم في ذلك اليوم وانفتح دمل كان في وجهه، وسال منه دم كثير على وجهه، وهو صابر محتسب، وثبت أيضاً في ذلك اليوم طلب الموصل، ومقدمه علاء الدين، وشكره السلطان على ذلك، وتفقد الناس بعضهم بعضاً، فوجدوا قد استشهد جماعة من العسكر عرف منهم أمير شكار موسك، وكان رجلاً شجاعاً معروفاً، وقاياز العادلي، وكان مذكوراً، وأبقوش، وكان شجاعاً أسف السلطان عليه وجرح خلق كثير وخيول كثيرة وقتل من العدو جماعة وأسر واحد فأحضر، فأمر السلطان بضرب عنقه، وأخذت منهم خيول أربعة، ثم أمر السلطان أن يتقدم الثقل إلى العوجاء ، وكان الأفرنج نزلوا على قبلي أرسوف، ونزل الثقل قاطع النهر المعروف بالعوحاء في منزلة خضرة على جانب النهر، ووصل السلطان في آخر النهار، وازدحم الناس على القنطرة، ونزل السلطان على تل مشرف على النهر، ولم يعبر الخيمة، وأقام السلطان إلى سحرة ليلة الأحد الخامس عشر من شعبان من هذه السنة، ثم دق الكؤوس وركب وركب الناس وسار راجعاً إلى جهة العدو حتى وصل إلى أرسوف ، وصف الأطلاب للقتال وجاء خروج الأفرنج ومسيرهم حتى يصادمهم، فلم يرحل الملاعين في ذلك اليوم لما نالهم من التعب والجراحات، فأقام السلطان قبالتهم إلى آخر النهار، ثم عاد إلى منزلته التي بات بها، فبات بها ليلة الاثنين السادس عشر ، ولما كان يوم الاثنين دق الكؤوس، وركب وركب الناس، وسار نحوهم ، وبلغ إليه خبرهم أنهم رحلوا طالبين جهة يافا، وسار حتى قاربهم جداً ورتب الأطلاب ترتيب القتال، وأخرج الجاليش، وأحدق العسكر الاسلامي بالقوم وألقوا عليهم من النشاب ماكاد أن يسد الأفق، وقاتلهم قتالاً عظيماً والملاعين لم يحملوا بل حفظوا نفوسهم،

وساروا مصطفين على عادتهم حتى أتوا نهر العوجاء، وهو النهر الذي كان منزل المسلمين أعلاه، فنزلوا في أسفله، وعبر بعضهم النهر وأقام الباقون من الجانب الشرقي، وعاد السلطان أيضاً إلى الثقل، ونزل في خيمته وأكل الطعام ثم أتي بأربعة من الأفرنج وقد أخذتهم العرب، ومعهم امرأة، فرفعوا إلى الزردخاناه، وأقام السلطان بقية اليوم في تلك المنزلةوكتب الكتب إلى الأطراف باستحضار بقية العساكر، وحضر من أخبره أنه قتل من الفرنج يوم أرسوف خيول كثيرة وأن العرب يتبعونها فعدوها فزادت على مائة، وجرح أيضاً من خيل المسلمين شيء كثير، ثم أمر السلطان برحيل الجمال إلى الرملة، وبات في تلك المنزلة، ولما كان يوم الثلاثاء السابع عشر من شعبان صلى الصبح ورحل ورحل معه الثقل الصغير، وسار يريد الرملة، وأتي باثنين من الأفرنج فأمر بضرب أعناقهما، وجاء خبر من اليزك بأن الفرنج رحلوا قاصدين يافا، وسار السلطان إلى الرملة ونزل في الثقل الكبير وأتي باثنين من الأفرنج أيضاً فسألهما عن أحوال القوم فذكرا أنهم ربما يقيمون في يافا أياماً وفي أنفسهم عمارتها واشحانها بالرجال والعدد، فأحضر السلطان أرباب المشورة وشاورهم في أمر عسقلان هل تخرب أم تبقى، واتفق الرأي على أن يتخلف الملك العادل ومعه طائفة من العسكر قريباً من العدو لأجل الأخبار ، وأن يسير السلطان إلى عسقلان ويخربها خشية من أن يتولاها الأفرنج فيأخذوا من بها من المسلمين، ويأخذوا بها القدس الشريف، ويقطعوا طريق مصر، فعند ذلك أمر السلطان برحيل الثقل الجمالي من أول الليل، وأمر ولده الملك الأفضل أن يسير عقيب الثقل في نصف الليل، ثم سار السلطان في سحرة يوم الاربعاء الثامن عشر من شعبان، ووصل إلى يبنى فنزل بها، وأخذ الناس راحة، ثم رحل وسار حتى أتى أرض عسقلان بعد صلاة العصر، وقد ضربت خيمته بعيداً منها شمالي البلد في أرض طيبة، فبات هنا مهموماً بسبب تخريب عسقلان ، وما نام تلك الليلة إلاّ قليلاً.

قال قاضي القضاة بهاء الدين: فطلبني في تلك الليلة وقت السحر، وشرع في حديث عسقلان وتخريبها وأحضر ولده الملك الأفضل وشاوره في ذلك، وقال: والله لأن أفقد أولادي بأسرهم أحب إليّ من أن أهدم منها حجرا واحدا، ولكنن إذا قضى الله بذلك، وعينه لحفظ مصلحة المسلمين فكيف أصنع ؟!

ذكر تخريب عسقلان

ثم استخار السلطان فأوقع الله في قلبه أن المصلحة في تخريبها لعجز المسلمين عن حفظها عن الافرنج، فاستحضر الوالي بها يدعى قيصر، من كبار مماليكه وذوي الآراء منهم، فأمره أن يضع فيها المعاول، وذلك في سحرة ليلة الخميس التاسع عشر من شعبان، وقسم السور على الناس ، وجعل لكل أمير وطائفة من العسكر بدنة معلومة وبرجا معلوما يخربونه، ودخل الناس البلد، ووقع فيه الضجيج والبكاء، وكانت بلدة نضرة حسنة خفيفة على القلب محكمة الأسوار عظيمة البناء، مرغوبا في سكنها، فلحق الناس حزن عظيم، وعظم عويل أهلها وبكاؤهم على مفارقة أوطانهم ، وشرعوا في بيع ما لا يمكن حمله، وبيع ما يساوي عشرة دراهم بدرهم واحد، ورمى الناس أقمشتهم بالثمن البخس حتى بيع اثني عشر طيرا من الدجاج بدرهم واحد، واختبط البلد، وخرج أهله إلى العسكر بذراريهم ونسائهم خشية أن يهجم الافرنج البلد، وبذلوا في الكرى أضعاف ما يساوي، فقوم إلى مصر و قوم إلى الشام، وقوم يمشون لم يقع لهم كراء، وجرت أمور كثيرة وبلية عظيمة لعلها لم يكن مثلها ، وكان السلطان وولده الملك الأفضل يستعملان الناس في التخريب والحث عليه خشية أن يسمع الافرنج فيحضرون ولا يمكن تخريبها، وبات الناس على أشد حال من التعب والنصب، وفي تلك الليلة حضر من الملك العادل من أخبر أن الافرنج تحدثوا معه في الصلح، وأن ابن الهنفري جاء إليه وتحدث معه في ذلك، فرأى السلطان أن ذلك مصلحة

لما رأى في أنفس الناس من الضجر والملالة من القتال والمصابرة وكثرة ما علاهم من الديون، وكتب إليه يسمح له في الحديث في ذلك، وفوض أمر ذلك إليه، وأصبح يوم الجمعة العشرين من شعبان على الاصرار على التخريب واستعمال الناس فيه، وأباح لهم الهري الذي كان ذخيرة في البلد للعجز عن نقله وضيق الوقت والخوف من لحوق الأفرنج ، وأمر بتحريق البلد، وأضرمت النار في البيوت والآدر فاضطرمت النيران فيها ، ورمى الناس غالب أقمشتهم للعجز عن نقلها، وفي أثناء ذلك الأخبار تتواتر من جانب الافرنج بعمارة يافا، وأن كل وقت يجري بينهم وبين اليزك وقعات.

وقال قاضي القضاة بهاء الدين: ولم يزل التخريب والتحريق يعملان في عسقلان وأسوارها إلى سلخ شعبان من هذه السنة، وكانت عظيمة البناء بحيث أن بعض سورها كان عرضه تسعة أذرع وفي مواضع عشرة أذرع، وذكر بعض الحجارين للسلطان وأنا حاضر ـ أن عرض البرج الذي ينقبون فيه مقدار رمح.

قال القاضي: ووصل في أثناء ذلك جرديك بكتاب فيه أن الفرنج قد تفسحوا وصاروا يخرجون من يافا ويغيرون على البلاد القريبة منها، فلو تحرك السلطان لعله يبلغ غرضه منهم في غرتهم، فعزم السلطان على الرحيل ، وعلى أن يخلف حجارين في عسقلان ومعهم من يحميهم حتى يستقصوا في التخريب، ثم رأى أن يتأخر الى أن يحرق البرج المعروف بالاسبتار، وكان برجا عظيما مشرفا على البحر كالقلعة المنيعة، ثم أصبح السلطان يوم الاثنين مستهل رمضان من هذه السنة، وأمر ولده الملك الأفضل أن يباشر ذلك بنفسه وخواصه.

قال القاضي: ولقد رأيته يحمل الخشب هو وخواصه لتحريق البرج، ولم يزل الناس ينقلون الأعشاب ويحشونها في البرج حتى امتلأ، ثم

اطلقت فيها النار، وبقيت النار تشتعل فيها يومين وليلتين، ثم رحل السلطان ليلة الثلاثاء الثاني من رمضان من نصف الليل، ووصل إلى يبنى ضحوة نهار الثلاثاء، ونزل في خيمة أخيه الملك العادل ، واستعلم منه الأخبار، ثم قام ونزل في خيمته، وبات تلك الليلة في تلك المنزلة .

ذكر رحيل السلطان إلى الرملة

ولما أصبح السلطان يوم الأربعاء الثالث من رمضان رحل إلى جهة الرملة، فسار حتى أتاها ضحوة النهار ونزل بالثقل الكبير هناك نزول اقامة، ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقلبا، ومد السماط للناس، ثم أخذ بعض راحة ثم ركب بين الصلاتين وسار إلى لد فرآها ورأى بيعتها وعظم بنائها ، فأمر بتخريبها وتخريب قلعة الرملة أيضا، ووقع الخراب في الموضعين في ذلك اليوم، وفرق الناس لتخريب المكانين وأباح ما فيهما من التبن والشعير في الاهراء السلطانية، وأمر من كان بهما من المقيمين بالانتقال إلى المواضع العامرة ، وما كان بقي من المكانيين إلا نفر يسير، ثم عاد السلطان إلى خيمته، ولما أصبح يوم الخميس الرابع من رمضان أقام الحجارين في المكانيين، ورتب عندهم من يستخدمهم في ذلك وهو يتردد إليهم في الأصايل، ثم وقع له أن يسير خفية في نفر يسير ليشاهد أحوال القدس الشريف، وخلف أخاه العادل في العسكر يحث الناس على الخراب فسار من أول الليل حتى أتى القدس الشريف في يوم الجمعة خامس رمضان المذكور، وصلى الجمعة وأقام ذلك اليوم يتفقد أحوال الناس وأحوال القدس في عمارته وميرته وعدته وغير ذلك، وظفر بنفر من النصارى معهم كتب إلى الافرنج، فضرب أعناقهم، ولم يزل مقيما في القدس إلى يوم الاثنين الثامن من رمضان، ولما كان يوم الاثنين خرج قاصدا العسكر بعد صلاة الظهر فبات في بيت نوبة.

ذكر مجيء معز الدين صاحب ملطية

وفي يوم الاثنين المذكور وصل صاحب ملطية معز الدين قيصر شاه ابن قليج أرسلان وافدا على السلطان مستنصرا على أخوته وأبيه لأنهم كانوا قاصدين أخذ بلده منه، فلقيه الملك العادل عند لد واحترمه وأكرمه، ثم لقيه بعده الملك الأفضل ولد السلطان، وضرب خيمته قريبا من لد.

وفي تاريخ النويري: وسبب قدومه أن والده فرق مملكته على أولاده، وأعطى ولده هذا ملطية، ثم تغلب بعض أخوته على أبيه وألزمه أن يأخذ ملطية من أخيه المذكور، فخاف من ذلك، فسار إلى السلطان ملتجئا إليه، فأكرمه السلطان وزوجه بابنة أخيه الملك العادل، وعاد معز الدين إلى ملطية في ذي القعدة وقد انقطع طمع أخيه منه.

وقال ابن الأثير: ولما ركب السلطان صلاح الدين ليودع معز الدين قيصر شاه المذكور ترجل معز الدين فترجل السلطان صلاح الدين، ولما ركب عضده قيصر شاه وركبه، وكان علاء الدين بن عز الدين مسعود صاحب الموصل مع السلطان إذ ذاك، فسوى ثياب السلطان، فقال بعض الحاضرين في نفسه: ما بقيت تبالي يابن أيوب بأي موتة تموت: يركبك ملك سلجوقي ويصلح قماشك ملك أتابكي زنكي، وفي يوم قدوم معز الدين وصل الخبر إلى العسكر أن جماعة من الحشاشين من الأفرنج خرجوا يحشون، فحمل عليهم اليزك الاسلامي، ووصل الخبر إلى عسكرهم، فخرجت في نصرتهم جماعة وجرى بينهم وبين اليزك قتال، وذكر بعض الأسرى أنه كان معهم ملك الانكتار، وأن شخصا من المسلمين قصد طعنه، فحال بينه وبينه فرنجي، فقتل الفرنجي وجرح هو.

-١١٤٠٠-

ذكر عودة السلطان إلى المعسكر

ولما كان يوم الثلاثاء تاسع رمضان المذكور وصل السلطان إلى العسكر ولقيه الناس مستبشرين بقدومه وأقام يحث على الخراب، ولم تزل أخبار العدو عنده، ولم يزل يقع بين اليزك وبين الأفرنج وقعات وتسرق العرب من خيولهم وبغالهم ورجالهم.

وفي أثناء ذلك اليوم وصل رسول من المركيس يذكر أنه يصالحهم بشرط أن يعطى صيدا وبيروت على أن يجاهر الفرنج بالعداوة، ويقصد عكا ويحاصرها ويأخذ ها منهم، فأجاب السلطان وسير إليه العدل النجيب، وكان المركيس هذا خشنا ملعونا، وكان لما استشعر من الافرنج أخذ بلده صور منه استعصم بها، وانحاز عن الفرنج، ولذلك أجاب السلطان إلى كلامه، وسير العدل النجيب مع رسوله يوم الجمعة ثاني عشر رمضان، واشترط عليه أن يبدأ بمجاهرة عداوة القوم وحصار عكا وأخذها واطلاق من بها من الأسرى، وكذلك من كان بصور من الأسرى، فإذا فعل ذلك يسلم إليه صيدا وبيروت.

ولما كان يوم السبت الثالث عشر من رمضان تأخر السلطان بالعسكر إلى الجبل ليتمكن الناس من انفاذ دوابهم إلى العلوفة، فإنهم كانوا على الرملة قريبين من الأفرنج، فنزل السلطان على تل بجبل النطرون بالثقل الكبير وجميع العسكر ما عدا اليزك وذلك بعد خراب الرملة ولدّ، ويوم نزوله هناك أمر بتخريب النطرون، وكانت قلعة منيعة.

وفي السابع عشر من رمضان جاء الخبر من اليزك بأخبار طيبة منها خبر هلاك الأفرنسيس، وكان موته في أنطاكية عن مرض عرض له، ومنها أن ملك الانكتار عاد إلى عكا، وذلك لما صح عنده مراسلة المركيس إلى السلطان فيما ذكرنا.

ذكر سير الملك العادل إلى القدس

وفي يوم الجمعة التاسع عشر من رمضان اقتضى الحال تفقد أحوال القدس، والنظر في عمائره، فتعين لذلك الملك العادل، فسار إليه وعاد منه إلى العسكر يوم الأحد الحادي والعشرين من رمضان، وفي أثناء هذه الأيام وصل كتاب من الملك المظفر تقي الدين يخبر أن قزل أرسلان صاحب ديار العجم قفز عليه أصحابه فقتلوه، وكان قتله في أوائل شعبان من هذه السنة.

وفي هذا التاريخ وصلت مراكب العدو، وقيل إنها وصلت من عكا وأن ملك الانكتار فيها بجماعة عظيمة وقصده عمارة عسقلان، وقيل قصده أخذ القدس، ووصلت جماعة من الأسرى كانوا من عكا أخذهم اليزك من موضع يقال له الزيب، ووصل رسول قزل أرسلان، كان قد سيره قبل موته، ورسول ابن أخيه اينانج، ورسول ملك الانكتار ومعه حصانه إلى الملك العادل في مقابلة هدية كان أنفذها إليه، ووصل خبر وفاة حسام الدين بن لاجين بدمشق بسبب مرض عرض له، فحزن عليه السلطان، ووصل كتاب من سامة يذكر فيه أن الأبرنس صاحب أنطاكية ـ لعنه الله ـ أغار على جبلة واللاذقية، وأنه كسر كسرة عظيمة وقتل منه جماعة وعاد إلى أنطاكية مخذولا، ووصل رسول من ملك الانكتار يقول: خربت البلاد وهلك المسلمون والافرنج وتلفت الأموال، وقد بلغ الأمر غايته، وما ثم شيء في الوسط سوى القدس والصليب والبلاد وأما القدس فإنه متعبدنا ما نفرغ عنه ولو لم يبق منا أحد، وأما البلاد فتعاد إلينا من حد الأردن، وأما الصليب فإنه خشبة لا مقدار لها عندكم وهو عندنا عظيم، فيمن السلطان بهذه الأشياء علينا ونصطلح ونستريح من هذا العناء الدائم، ولما وقف السلطان على هذا أجاب بأن القدس لنا كما هو لكم، بل هو أعظم عندنا مما هو عندكم فإنه مسرى نبينا صلى الله عليه وسلم ومجمع الملائكة فلا يتصور أن نتركه ولا نقدر

على التلفظ بذلك بين المسلمين، وأما البلاد فهي لنا في الأصل واستيلاؤكم عليها صار لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت، وأما الصليب فحرقه عندنا قربة عظيمة لا يجوز لنا أن نفرط فيها إلا لمصلحة راجعة إلى الاسلام .

ذكر هروب شيركوه بن ما خل الكردي من عكا

وكان أسيرا فيها ووصل إلى عسكر الاسلام في أواخر يوم الجمعة السادس والعشرين من رمضان وكان من الأمراء الأكراد الزرزاريين، وأخبر أنه هرب ليلة الأحد الحادي والعشرين من رمضان، وكان ادخر له حبلا في مخدة، وكان الأمير حسين بن باريك ادخر له حبلا في بيت الطهارة، فاتفقا على الهروب، ونزلا من طاقة كانت في بيت الطهارة، وانحدرا من السور الأول، وعبر شيركوه من الباشورة، وكان ابن باريك حالة نزوله انقطع به الحبل، ونزل شيركوه سليما، وأنه أتى إليه وحركه فلم يتحرك، فخاف إن مكث أخذ، فتركه وانصرف واشتد هربا في قيوده حتى أتى إلى تل العياضية، وقد طلع الصبح، فكمن في الجبل حتى علا النهار، وكسر قيوده وسار، فستر الله عليه حتى أتى العسكر في الوقت المذكور، وأخبر أن سيف الدين بن المشطوب ضيقوا عليه وقطعوا عليه قطيعة عظيمة من خيل وبغال وأموال ،وأن ملك الانكتار أتى عكا وأخذ كل من كان بها من خدمه ومماليكه وأقمشته، ولم يخل له فيها شيئا، وأن فلاحي الجبل يمدونه بالميرة مدا عظيما، وأن طغرل السلاحدار أخذ خواص مماليك السلطان فهربوا قبل هروب شيركوه.

ذكر بقية الأخبار

منها أن في يوم الاثنين التاسع والعشرين من رمضان استدعى الملك العادل قاضي القضاة بهاء الدين، وأحضر جماعة من الأمراء: علم

الدين سليمان وسابق الدين وعز الدين بن المقدم، وحسام الدين بشارة وقال لهم: إن ملك الانكتار أرسل إليه يقول له: إن العادل يتزوج بأخته، وكان قد استصحبها معه من صقلية، وكانت زوجة صاحبها ومات عنها، وأن يكون مستقرها بالقدس وأن أخاها يعطيها بلاد الساحل التي في يده من عكا إلى يافا وعسقلان، وغير ذلك، ويجعلها ملكة الساحل، وأن السلطان يعطي الملك العادل جميع ما في يده من بلاد الساحل ويجعله ملك الساحل، ويكون ذلك مضافا إلى ما في يده من البلاد والاقطاعات، وأن يسلم إليهم صليب الصلبوت وتكون القرى للداوية والاسبتار وأنا أفك أسراكم، وأنتم تفكون أسرانا، فإذا استقر الصلح على هذا يرحل ملك الانكتار إلى بلاده في البحر وينفصل الأمر

قال القاضي: فلما حضرنا عند السلطان عرضت عليه هذا الحديث فبادر إلى الرضى بهذه القاعدة معتقدا أن ملك الانكتار لا يوافق على ذلك أصلا، وأن هذا منه هزو ومكر.

قال: ثم عدنا إلى الملك العادل وعرفناه بذلك، ولما كان يوم الأربعاء الثاني من شوال سار ابن النحال رسولا من جانب العادل والسلطان أيضا إلى ملك الانكتار، فلما عرف بقدومه أنفذ إليه من قال له: إن الملكة أخت الملك عرض عليها أخوها حديث النكاح فسخطت من ذلك وغضبت وأنكرت أن يكون ذلك انكارا شديدا، وحلفت أنه لا يكون أصلا، ثم قال أخوها: إن الملك العادل يتنصر فأنا أتمم ذلك، فعاد الرسول بذلك وأخبر العادل والسلطان به، وتحقق ما قاله السلطان.

ومنها أن في يوم السبت خامس شوال وصل الخبر من الاسطول الاسلامي أنه استولى على مراكب للأفرنج، وفيها مركب يعرف بالمسطح، قيل إنه كان فيه خمسمائة نفر وأكثر، وأنه قتل منهم خلق عظيم واستبقى منهم أربعة أنفس وهم كبار مذكورون، فسر المسلمون بذلك وضربت البشائر.

ومنها أن في يوم الأحد سادس شوال جمع السلطان أكابر الأمراء وأرباب الآراء من دولته وشاورهم في أن الأفرنج قد أجمعوا على الخروج، وأنه كيف يصنع في ذلك، فاتفقت آراؤهم على الاقامة في منزلتهم بعد تخفيف الأثقال، فإن خرجوا لاقوهم، وفي عشية هذا اليوم استأمن من الأفرنج اثنان فارسان وأخبرا أنهم على عزم الخروج يوم الثلاثاء، وأنهم زهاء عشرة آلاف فارس، ولكن لا يعرف قصدهم، ثم جاء أسير مسلم هرب منهم وأخبر أنهم قد أظهروا الخروج إلى الرملة ، ثم يتفقون فيها على موضع يقصدونه، ولما تحقق السلطان ذلك أمر بتجهيز العسكر، وشد الرايات وأن يقف قبالتهم إن خرجوا، وسار يوم الاثنين حتى أتى قبلي كنيسة الرملة فخيم هناك وبات ليلته، ولما كانت صبيحة يوم الثلاثاء الثامن من شوال رتب الأطلاب للقتال، وسلم اليزك للملك العادل، وتبعه من يريدون الغزاة ، فخرجوا في جملة من خرج، فلما وصلوا إلى خيام الأفرنج هجم عليهم المماليك السلطانية ورموا عليهم بالنشاب، وقام الأفرنج وركبوا وصاحوا صيحة الرجل الواحد وحملوا في جمع كثير، فنجا من سبق به جواده، وظفروا بجماعة قتلوا منهم ثلاثة نفر على ما قيل، ونقلوا خيامهم إلى يازور وأقام السلطان بلقاء منازلهم إلى الصباح، ولما كان يوم الجمعة الحادي عشر من شوال ركب السلطان نحوهم فأشرف عليهم ثم عاد.

قال القاضي: ثم استدعاني وجماعة من الأمراء،وأمر الناس بإبعادهم عن الخيمة، فأخرج كتابا من قبائه وفضه ووقف عليه، وبدرت دموعه، وغلبه البكاء والنحيب حتى وافقه الحاضرون على ذلك من دون علم، السبب، ثم ذكر أن الملك المظفر قد توفي إلى رحمة الله، وأمر بكتم ذلك عن الناس لئلا يصل الخبر إلى العدو، وكانت وفاته في تاسع عشر رمضان يوم الجمعة على ما نذكره انشاء الله.

ومنهـا: أن في يوم السبـت الثـاني عشر من شـوال وصـل من دمشـق كتـاب من النـواب بها، وفي طيه كتـاب من بغـداد مـن الديـوان العزيـز النبوي يتضمن فصولا ثلاثة:

الأول: الانكار على الملك المظفر في مسيره إلى بكتمر.

والثـاني في الانكـار على مظفر الـديـن في مسـك حسن بـن قفجـاق والأمر بإعادته إلى الكرخاني.

الثالـث: فيه الأمر بـإحضار القاضي الفاضـل إليهم ليقال لـه أشياء: فأجـاب السلطان عـن الأول بأنـا لم نأمـره بذلـك، وعن الثـاني بأن ابـن قفجاق لا يخفى مـا تصدى له من الفسـاد في الأرض، وعن الثالث بـأنه كبير الأمراض وقوته تضعف عن الحركة.

ومنها أن في السـادس عشر من شوال أمـر السلطان للحلقـة بالكمين للعـدو في بطون أوديـة هنـاك واستصحبوا جمعـا مـن العرب، فلما استقـر الكمين في مـوضعه ظهـرت العرب في منـاوشتهـم، وكانـت منهم جماعـة تخرج لـلاحتشاش والاحتطـاب، فنـزل عليهـم العرب ووقـع الحرب وقـام الصياح، فركبـت جماعة من خيالـة الأفرنج، وانهزمت العـرب بين أيديهم إلى جهة الكمين ، فخـرج الكمين ووقع الصياح وانهزموا بين أيديهم نحو خيـامهم، ثـم ركب منهـم خلق عظيـم فـالتحم القتـال، وقتل جمع مـن الطـائفتين ، وأسرت جماعـة مـن العـدو، وأخـذت منهـم خيـول كثيرة ، وانفصل الحرب قبيل الظهر من نهار الأربعـاء السادس عشر من شوال، واستشهد في هـذه الوقعة ايـاس المهراني، وكان شجـاعا معروفـا، وجاولي غلام الفيدي، وصرع إيـاز المعظمي، وجرح جماعة عدة، وقتـل من العدو زهاء ستين نفرا، وأسر فارسان معروفان، واستأمن اثنان بخيولهما وعدتهما.

ومنها أنـه وصل في بقية هـذا اليوم رسـول من عند ملـك الانكتار إلى

الملك العادل يعتب عليه من جهة الكمين وأنه يطلب الاجتماع به، فأذن له، ولما كان يوم الجمعة الثاني عشر من شوال سار الملك العادل، ومعه من الأطعمة والتجملات والتحف ما يحمل من ملك إلى ملك، وجاء إليه ملك الانكتار في خيمته فأكرمه العادل واحترمه، ووصل معه أيضا من طعامهم الذي يختصون به، فأتحف به الملك العادل على وجه مطايبته، فتناول منه العادل وتناول هو وأصحابه من طعام العادل، وقدم إليه ما كان حمله معه، وتحادثا معظم ذلك النهار وتفاصلاعن تواد ومطايبة.

ومنها: أن في يوم السبت التاسع عشر من شوال حضر صاحب صيدا بين يدي السلطان ومعه جماعة وأكرمه السلطان اكراما عظيما، وقدم بين يديه طعاما، ولما رفع الطعام خلا بهم، وكان من حديثه أن السلطان يصالح المركيس صاحب صور، وقد انضم إليه جماعة من أكابر الافرنج، وكان من شرط الصلح معه اظهار عداوته للأفرنج البحرية، وبذل له السلطان موافقة على ذلك.

ومنها أن في عشية ذلك اليوم وصل رسول ملك الانكتار، وهو ابن الهنفري، وكان من أكابرهم وملوكهم، ومن أولاد ملوكهم، وفي صحبته شيخ كبير ذكروا أن عمره مائة وعشرون سنة، فأحضره السلطان، وكانت رسالته: إن الملك يقول إني أحب صداقتك ومودتك، وأنت قد ذكرت أنك أعطيت هذه البلاد الساحلية لأخيك، فأريد أن تكون حكما بيني وبينه، ونقسم البلاد بيني وبينه، ولابد أن يكون لنا علقة بالقدس، ومقصودي أن نقسم البلاد بحيث لا يكون عليك لوم من المسلمين، ولا علي لوم من الأفرنج، فأجابه في الحال بوعد جميل، ثم أذن لهم بالعود في الحال.

قال قاضي القضاة بهاء الدين رحمه الله: ثم التفت السلطان في

المجلس وقال لي: متى صالحناهم لم نأمن من غائلتهم، فإني لو حدث بي حادث الموت لا تكاد تجتمع هذه العساكر، ويقوى الأفرنج، والمصلحة الثبات على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل، أو يأتينا الموت، هذا كان رأيه وغرضه رحمه الله.

ولما كان يوم الاثنين الحادي والعشرين من شوال جمع السلطان الأمراء الكبار وأرباب المشورة من الدولة،وذكر لهم القاعدة التي التمسها المركيس، واستقر الأمر من جانبه عليها وهي أخذ صيدا، وأن يكون معنا على الفرنج ويقاتلهم ويجاهرهم بالعداوة، وذكر لهم القاعدة التي التمسها ملك الانكتار، وهي أن يكون له من القرايا الساحلية مواضع معينة، وتكون لنا الجبليات بأسرها، وتكون القرايا كلها مناصفة، وعلى هذين القسمين يكون لهم أقساء في بيع القدس الشريف وكنائسه،وشرح لهم السلطان هاتين القاعدتين وأخذ رأيهم في ترجيح أحد القسمين.وهما من جانب ملك الانكتار ومن جانب المركيس، فرأى أرباب الرأي أنه إن كان صلح فليكن ملك الانكتار فإن مصافاة الفرنج للمسلمين بحيث يخالطونهم بعيدة، وصحبتهم غير مأمونه، وانفض الناس وبقي الأمر مترددا في الصلح والرسل تتواصل في تقرير قواعد الصلح، وهي أن ملك الانكتار كان قد بذل أخته للملك العادل بطريق التزويج، وأن تكون البلاد الساحلية والفرنجية لها، أما الفرنجية فلها من جانب الملك وأما الاسلامية فللملك العاد ل من جانب السلطان، وكان آخر رسائلهم من الملك أن قال:إن معاشر دين النصرانية أنكروا علي كون أختي تحت مسلم بدون مشاورة الباب، وهو كبير دين النصرانية ومقدمه وها أنا أسير إليه رسولاً يعود في ستة أشهر، فإن أذن في ذلك فبها ونعمت، وإلاّ زوجتك ابنة أختي، وما أحتاج في ذلك إلى إذن الباب، هذا كله وسوق الحرب قائم، والقتال عمال، وصاحب صيدا يركب مع الملك العادل في الأحيان ويشرف على الأفرنج وقتال المسلمين لهم، وكلما رآه ا لأفرنج مع الملك العادل تحركوا للصلح خوفا من

انكسار الشوكة لهم، ولم يزل الحال كذلك إلى يوم الجمعة الخامس والعشرين من شوال، ففي يوم الجمعة أصبح السلطان عازما على الرحيل وسار إلى تل الجزر لارتياد المنزل، فنزلت الناس كلهم مع السلطان، ولما عرف الأفرنج بعود السلطان رحلوا عائدين، وأقام السلطان بتل الجزر، ثم رحل إلى جهة القدس الشريف، ورحل الأفرنج إلى بلادهم واشتد الشتاء وعظمت الأمطار، وأعطى السلطان دستورا للعساكر وأقام بالقدس في هذا الشتاء أجمع، ونزل السلطان في دار القساقس قريبا من القيامة، وكان نزوله في ذي القعدة من هذه السنة، وشرع في تحصينه وتعميق خنادقه، وعمل فيه بنفسه وأولاده وأمرائه، وعمل القضاة والعلماء والصوفية بأنفسهم، وكان وقتا مشهودا، واليزك حول البلد من ناحية الأفرنج، وفي كل وقت يستظهرون على الأفرنج ويقتلون ويغنمون منهم، وانقضت السنة والأمر على ذلك، وأرصد ملك الانكتار في يافا عساكر، ثم عاد إلى عكا لينظر في أحوالها وأقام مدة.

ذكر بقية الحوادث في هذه السنة

منها أنه استقر الحال مع الملك المظفر تقي الدين صاحب حماه أن يأخذ الرها وحران وسمسياط وينزل عن كل الذي بالشام: بصرى، وعمان، والبلقاء، ومن حلب: المعرة ومنبج، والمستقر بيده حماه وسلمية واللاذقية وجبلة وبلاطنس وبكسرائيل، ثم لم يلبث أن أدركته الوفاة على مانذكره في الوفيات إن شاء الله تعالى.

ومنها أن السلطان صلاح الدين أرسل إلى ولده الظاهر أن يخرب حصن بغراس، فبلغ ذلك ابن ليفون صاحب سيس فسار إليها فأخذها بغير قتال.

ومنها أن السلطان أخرب عسقلان كما ذكرنا ، وأخرب غزة والداروم أيضا، واهتم بعمارة القدس الشريف.

ومنها أن السلطان عزل أبا حامد محمد بن عبدالله بن أبي عصرون عن قضاء دمشق، وولى محيي الدين بن زنكي الدين، قالوا: وسبب عزل ابن أبي عصرون مداخلته الجند واشتغاله بما يشتغل به الأمراء من اتخاذ الخيول والمماليك والنزل ومباشرة الحروب، ومعاملة الأمراء ومداينتهم فتبرم السلطان منه وعزله...

ذكر من توفي فيها من الأعيان

الأمير سليمان بن جندر: من أكابر أمراء حلب ومشايخ الدولتين النورية والصلاحية، وهو والد علم الدين بن سليمان، وشهد سليمان مع صلاح الدين حروبه، وهو الذي أشار بخراب عسقلان لتتوفر العناية على حفظ القدس، ولما صعد السلطان إلى القدس مرض سليمان، فطلب المسير إلى حلب فأذن له السلطان فسار فتوفي بغباغب في أواخر ذي الحجة وحمل إلى حلب فدفن بها.

الأمير حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين:صاحب نابلس، وأمه ست الشام بنت أيوب أخت السلطان صلاح الدين،واقفة الشاميتين بدمشق، توفي ليلة الجمعة تاسع عشر رمضان، ففجع السلطان به وبابن أخيه تقي الدين عمر، لأنهما ماتا في ليلة واحدة، وقد كانا من أكبر الأعوان، وأعز الأخوان، ودفن حسام الدين في التربة الحسامية، وهي التي أنشأتها له بمحله العوينة، وهي الشامية البرانية، وكانت وفاته بدمشق، وكان شجاعا مقداما

الأمير الكبير الصفي بن القابض: نائب دمشق، وكان من أكبر أصحاب السطان صلاح الدين قبل الملك، ثم استنابه على دمشق

وفي المرآة: الصفي بن القابض: وزير صلاح الدين، واسمه نصر

الله، وكان خدم السلطان لما كان شحنة دمشق، وأمده بالمال، فرأى له ذلك، فلما ملك استوزه وكان شجاعا ثقةدينا أمينا، ولما نزل الفرنج داريا والسلطان في الشرق، جمع من أهل دمشق سوادا عظيما، وخرج إلى ظاهر البلد، فظنوهم عسكرا ، فرحلوا، وكان كبير المعروف، وكتب أملاكه لمماليكه لأنه لم يكن له ولد، وبنى بالعقيبة مسجدا ودفن به في رجب، ويعرف اليوم بمسجد الصفي، وكانت وفاته في الثالث والعشرين من رجب رحمه الله...

الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب: كان عزيزا عند عمه السلطان صلاح الدين، استنابه بمصر وغيرها من البلاد، ثم أقطعه حماه ومدنا كثيرة معها حولها، ومن بلاد الجزيرة، وكان مع عمه على عكا، ثم استأذنه في الاشراف على بلاده المجاورة للفرات، فلما صار إليها اشتغل وامتدت عينيه إلى أخذ غيرها من أيدي الملوك الذين يجاورونه، فقاتلهم، فاتفق موته وهو على ذلك، والسلطان متغضب عليه بسبب اشتغاله بذلك عنه.

وقال العماد الكاتب: توفي الملك المظفر تقي الدين عمر يوم الجمعة التاسع عشر من شهر رمضان، وهو على محاصرة ملازكرد من عمل أرمينية، وكتم ولده الملك المنصور ناصر الدين محمد وفاته إلى أن أخرج من ذلك الاقليم سالما، وبعث إلى السلطان يسأله في ابقاء بلاد أبيه بيده، فلم يجب السلطان إليه.

وقال النويري: قد سار الملك المظفر تقي الدين عمر إلى البلاد المرتجعة من كوكبوري التي زاده إياها عمه السلطان من وراء الفرات وهي حران وغيرها، فامتدت عين الملك المظفر إلى البلاد المجاورة، واستولى على سويداء وحاني ، وتواقع مع بكتمر صاحب أخلاط فكسره

وحصره في أخلاط، وتملك معظم البلاد، ثم رحل عنها ونزل ملازكرد وهي لبكتمر وضايقها، وكان في صحبته ولده الملك المنصور محمد، فعرض للملك المظفر مرض شديد وتزايد به حتى توفي يوم الجمعة لاحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان، فأخفى الملك المنصور وفاته ورحل عن ملازكرد، ووصل به إلى حماه فدفنه بها بظاهرها، وبنى إلى جانب التربة مدرسة مشهورة هناك، وكان الملك المظفر شجاعا شديد البأس، ركنا عظيما من أركان البيت الأيوبي، وكان عنده فضل أدب وله شعر حسن.

ثم أرسل الملك المنصور إلى السلطان صلاح الدين، واشترط عليه شروطا، نسبه السلطان فيها إلى العصيان، وكاد أمره يضطرب بالكلية، فراسل الملك المنصور عمه الملك العادل في استعطاف خاطر السلطان، فما برح العادل بأخيه السلطان يراجعه ويشفع في الملك المنصور حتى أجابه السلطان، وقرر للملك المنصور حماه، وسلمية، والمعرة، ومنبج، وقلعة نجم، وارتجع السلطان البلاد الشرقية وما معها، وأقطعها أخاه الملك العادل بعد أن شرط السلطان أن الملك العادل ينزل عماله من الاقطاع بالشام خلا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء الى القدس شرفه الله، ولما استقر ذلك، سار الملك العادل إلى البلاد الشرقية لتقرير أمورها، فقررها وعاد إلى خدمة السلطان في آخر جمادى الآخرة من السنة القابلة، ولما قدم العادل على السلطان صلاح الدين كان الملك المنصور صاحب حماه صحبته، فلما رأى السلطان الملك المنصور ابن تقي الدين عمر نهض واعتنقه وبكى وأكرمه وأنزله في مقدمة عسكره.

وقال بيبرس في تاريخه: توفي الملك المظفر تقي الدين بأرض أخلاط في حصار منازكرد، ودفن بميافارقين، ثم نقل إلى حماه رحمه الله.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثامنة والثمانين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله العباسي، وصاحب مصر والشام وغيرهما من البلاد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وهو مقيم في القدس الشريف في دار الأقساء بجوار قمامة، وقد قسم السور بين أولاده وأجناده، وهو يعمل فيه بنفسه، ويحمل الحجر بينه وبين قربوس سرجه، والناس يقتدون به والعلماء والفقراء ويعملون بأنفسهم والأفرنج لعنهم الله حول البلد من ناحية عسقلان وما ماوالاها لا يتجاسرون أن يتقدموا من اليزك والحرس الذين للسلطان حول القدس، إلاّ أنهم على نية محاصرة القدس مصممون، ولكيد الاسلام مجمعون، وهم والحرس تارة يغلبون وتارة ينهبون وتارة يُنهبون.

ذكر رحيل الفرنج إلى عسقلان

قال العماد الكاتب رحمه الله : رحل الفرنج يوم الثلاثاء ثالث المحرم من الرملة إلى عسقلان، ونزلوا يوم الأربعاء بظاهرها، وتشاوروا في اعادة عمائرها، وكان سيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر والأسدية نازلين في بعض أعمالها مجدين في نقل غلالها، وركب ملك الانكتار عصر يوم الخميس ومعه حزبه من جند ابليس، فشاهد دخانا على البعد، فساق متوجها إلى تلك الجهة، وتبعه عسكره، فما شعر أصحابنا إلا بالكبسة بغتة، وذلك وقت المغرب وهم مجتمعون على الافطار، وكانوا نازلين في موضعين، فلم ير العدو إلاّ أحد القسمين ، فقصده بحزبه، فعرف القسم الآخر بهجوم العدو، فركبوا إلى العدو فدفعوه من بين أيديهم، وساقوا أثقالهم قدامهم، وما فقد من المسلين إلاّ أربعة أنفس، ونجا الباقون وكانت نوبة عظيمة رفع الله خطرها.

ذكر السرايا الثلاث

بتاريخ يوم الثلاثاء عاشر المحرم ركب السلطان صلاح الدين في

القدس على عادته في نقل الحجارة والجد في العمارة، ومعه أولاده الملوك والأمراء والقضاة والعلماء والصوفية والزهاد والأولياء، ولما دخل وقت الظهر نزل في خيمة ضربها ولده الملك الظاهر بالصحراء، وأحضر فيها السماط ودعا ناسا من الأمراء فحضروا وأكلوا، وصلى السلطان الظهر هناك وركب عائدا إلى داره وأمر بتجهيز السرايا، فنزل عز الدين جرديك في سرية، فأغار بهم يوم الأربعاء الحادي عشر من من المحرم على يبنى وفيها الأفرنج بنية السكن، فغنموا اثني عشر أسيرا وخيلا ودوابا كثيرة.

وفي يوم الثلاثاء ثاني صفر أغارت السرية وفيها عز الدين جرديك وعسكر القدس وجماعة من المماليك على ظاهر عسقلان، وغنموا ثلاثين أسيرا وخيولا وبغالا.

وفي ليلة الأحد رابع عشر صفر باتت سرية فيها فارس الدين ميمون القصري بتل الجزر، وساروا حتى أصبحوا على يبنى وكمنوا وصبروا إلى أن استرسلت الأفرنج إلى الطريق وأمنت، ثم ظهرت السرية على قافلة الأفرنج فكبسوها وأخذوها بأسرها مع رجالها وأحمالها وبغالها وأثقالها، ثم أغاروا على يافا فقتلوا وهتكوا وغنموا وعادوا بالغنيمة والسبايا وعجزت جماعة من المشي فضربوا أعناقهم صبرا.

ذكر خروج سيف الدين بن أحمد المعروف بالمشطوب من الأسر

وفي ربيع الآخر دخل الأمير سيف الدين علي المذكور إلى السلطان بالقدس الشريف وقد خلص من الأسر، وكان أسر حين كان نائبا على عكا فافتدى نفسه منهم بخمسين ألف دينار، فأعطاه شيئا كثيرا منهم، ثم استنابه على نابلس فتوفي بها في شوال منها.

وقال العماد الكاتب: قرر سيف الدين علي المذكور قطيعة خمسين ألف دينار، فأدى منها ثلاثين وأعطى رهائن على عشرين، ووصل إلى

القدس واجتمع بالسلطان يوم الخميس مستهل شهر ربيع الآخر، فقام إليه واعتنقه وأقطعه نابلس وأعمالها، ثم عين السلطان ثلث نابلس لمصالح البيت المقدس وتشييد سوره.

ذكر عصيان الملك المنصور بن الملك المظفر تقي الدين وماجرى له وعليه في ذلك:

وفي النوادر: ويوم وصول المشطوب كتب السلطان إلى ولده الملك الأفضل بأن يسير إلى الفرات ويتسلم البلاد من الملك المنصور بن الملك المظفر تقي الدين، وكان قد أظهر العصيان بسبب الخوف على نفسه من السلطان، وأظهر ذلك، وكتب إلى الملك الظاهر بحلب، وكان قد سافر إليها: إنه إن احتاج أخوك إلى معاونة أعنه، وجهز السلطان صلاح الدين ولده الأفضل بجملة كثيرة، وسار باحترام عظيم حتى وصل إلى حلب وأكرمه أخوه الملك الظاهر إكراماً عظيماً،وعمل له ضيافة تامة وقدم بين يديه تقدمة سنية.

وأما الملك المنصور فإنه لما بلغه موجدة السلطان عليه أرسل إلى الملك العادل رسولاً يستشفع به ليطيب قلب السلطان ويعطيه إما حران والرها وسميساط، وإما حماه ومنبج وسلمية والمعرة، فراجع الملك العادل السلطان مراراً بسببه فلم يفعل ذلك، ثم كثرت الشفاعة إليه من جميع الأمراء، وهزت له شجرة الكرم، فرجع إلى خلقه الحسن، وحلف له على حران والرها وسميساط، على أنه إذا عبر الفرات أعطى المواضع المذكورة ويتخلى عن البلاد التي في يده، ودخل في هذا الضمان الملك العادل، ثم التمس العادل خط السلطان، فأبى وألح عليه، فخرق نسخة اليمين في التاسع والعشرين من ربيع الآخر، وانفصل الحال، وانقطع الحديث.

وقال قاضي القضاة بهاء الدين: كنت المتردد بينهما في ذلك، وأخذ من السلطان الغيظ كيف يخاطب بمثل ذلك من جانب بعض أولاد أولاده.

قال القاضي: ثم أرسلني السلطان إلى العادل والأمراء بأن يتشاوروا في أمر الملك المنصور، فاجتمعوا في خدمة ا لعادل، فانتدب الأمير حسام الدين أبو الهيجاء وقال: نحن عبيد ا لسلطان ومماليكه، وذلك صبي وربما حمله خوفه حتى انضاف إلى جانب آخر، ونحن ما نقدر على الجمع بين قتال المسلمين والكفار، فإن أراد السلطان قتال المسلمين يصالح الكفار، ونسير نحن إلى ذلك الجانب ونقاتل بين يديه، وإن أراد ملازمة الغزاة يصالح المسلمين ويسامحهم، فاتفق الجميع على هذا الكلام، فعند ذلك رق قلب السلطان، وجددت نسخة يمين لابن تقي الدين، وحلف له بها، وأعطى خطه بما استقر من الأمر، ثم إن العادل طلب من السلطان البلاد التي كانت بيد ابن تقي الدين وتكررت مراجعات العادل في ذلك.

قال القاضي: وكنت الرسول بينهما، وكان آخر ما استقر عليه أنه يتسلم تلك البلاد وينزل عن كل ماهو شامي الفرات، ماعدا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء وخاصته بمصر، وذلك بعدأن قرر على نفسه في كل سنة ستة آلاف غرارة غلة تحمل للسلطان من الصلت والبلقاء إلى القدس، وأخذ خط السلطان بذلك، ثم سار بنفسه ليصلح ابن تقي الدين ويطيب قلبه، وكان مسيره في الثامن من جمادى الأولى من هذه السنة.

ثم إن السلطان سير إلى الملك الأفضل يأمره بالعود من قصد تلك البلاد، وكان قد وصل إلى حلب كما ذكرناه، فعاد مع انكسار في قلبه وتشوش في باطنه، فوصل إلى دمشق معتباً ولم يحضر إلى خدمة السلطان، فلما اشتد خبر الأفرنج سير إليه وطلبه، فما وسعه التأخر، فسار مع من

وصل من العساكر الشرقية إلى دمشق، وكان وصوله يوم الخميس التاسع عشر من جمادى الأولى من هذه السنة.

ثم ان السلطان سير إلى الملك الأفضل يأمره بالعود من قصد تلك البلاد، وكان قد وصل إلى حلب كما ذكرناه، فعاد مع انكسار في قلبه وتشوش في باطنه، فوصل إلى دمشق معتبا ولم يحضر إلى خدمة السلطان فلما اشتد خبر الأفرنج سير إليه وطلبه، فما وسعه التأخر، فسار مع من وصل من العساكر الشرقية إلى دمشق وكان وصوله يوم الخميس التاسع عشر من جمادى الآخرة، فلقيه السلطان قريب العازرية، وترجل جبراً لقلبه وتعظيماً لأمره، وساروا في خدمته وكان فيهم أخواه الملك الظافر وقطب الدين إلى ظاهر القدس من جهة العدو.

وأما الملك المنصور فإنه قد تسلم البلاد التي عينها له السلطان، ووصل إلى خدمة السلطان الملك العادل يوم السبت الحادي عشرمن شعبان، فنزل عنده، ثم كتب العادل إلى السلطان يخبره بوصوله وسأله في احترامه واكرامه، وطلاقة الوجه له، ثم إن المنصور لما قرب من السلطان استأذن ولده الظاهر في لقائه فأذن له في ذلك، فتلقاه في بيت نوبة، فنزل عنده وفرح بلقائه وأقام عنده إلى العصر، وذلك في يوم الأحد، ثم أخذه وسار به جريدة حتى أتى خيمة السلطان، فدخل عليه واحترمه واعتنقه وضمه إلى صدره، ثم غشيه البكاء فبكى بكاء كثيراً حتى بكى الناس لبكائه ثم باسطه وسأله عن الطريق، ثم قام وبات في خيمة ولده الملك الظاهر إلى صبيحة يوم الاثنين، ثم ركب وعاد إلى عسكره، ونشروا الأعلام والبيارق، وكان معه عسكر جميل، فقرت عين السلطان بذلك، وكان ذلك في صبيحة يوم الاثنين الثالث عشر من شعبان، ونزل في مقدمة العسكر مما يلي الرملة، وكان قدوم الملك الظاهر إلى خدمة والده السلطان يوم السبت الخامس من رجب من هذه السنة، ونزل في دار الاسبتار، وفرح السلطان به.